BEST SELLERS

أروع القصص البوليسية

POLICE ACTION STORIES



الجرائم الخفية



الجرائم الخفية

رمزية الشياطي

دار الراتب الجامعية
DAR EL-RATEB

سوفنير بوك هاوس

BEST SELLERS

أروع القصص البوليسية

POLICE ACTION STORIES

الجرائم الخفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الترقيم الدولي: ISBN: 9953-30-070-4

التعريب : رمزية الشياطي - ادوار جميل أبونصر

التحرير : رانيا حمدي - ناتالي كوبي

تصحيح : سمير الحديدي

التصميم والاشراف الفني

سامو برس غروب

الاشراف العام ومدير الانتاج

راتب أحمد قبيعه

دار الراتب الجامعية
DAR EL-RATEB

Tel : 00961 1 853 993
Tel: 00961 3 818664
Fax: 00961 1 853 895
P.O.Box: 19-5229 Beirut - Lebanon
E-mail: el-rateb@cyberia.net.lb

تقديم

العقل البشري، بحر الأسرار هذا، مركز الغموض الذي يحيّر أكبر العلماء والباحثين، تلافيفه الكثيرة الغريبة تخفي قدرات هائلة ومكونات ضخمة لم يتوصل العلم إلى فك كافة طلاسمها ورموزها بعد.

العقل البشري، خاصية الإنسان وهبة الله الأعظم يُخفي بداخله أبعاد ومجالات يقف المنطق والعلم أمامها بانبهار وذهول يغلف كل معجزة كل عبقرية. كل خاصية جديدة تظهرها الأيام وتميط اللثام عن كنهها تُثبت للمفكرين وللعالمين كنوز العقل المخبأة بين تلافيفه.

لهذا العقل الذكي، لهذه الهبة الإلهية العظمى، لبحر الأسرار هذا نوجّه هذا الكتاب ليظل العقل حياً مفكراً محللاً ليصل بالنهاية بالبشر كل البشر إلى شاطئ الكمال الإنساني، في حلّ الالغاز وتحليل الجريمة، والوصول الى الهدف من خلال الخيوط المعقدة للقصة.

مقتبسة عن أروع القصص البوليسية لشارلوك هولمز والفرد هتشكوك نقدمها للقارئ الكريم آملين اضافة وإغناء المكتبة العربية بكل جديد ومفيد.

ظلال الجرائم

ما هو السبب في انتشار الأرواح؟
إنه أمر سيظل مجهولاً لنا جهلنا للوجه الآخر للقبر.

العديد من الأموات ممن خالط موتهم نوع من المأساة، أو الحزن، أو الألم المبرح، أو العذاب، هم في الواقع أكبر من أعداد ما تم التبليغ عنه من وجود الأشباح.

من المعروف جيداً أن بعض الناس يرون الأشباح بينما لا يراها الآخرون، وربما هناك، في أماكن مثل ميادين المعارك العائدة للحرب العالمية الأولى، ظهور للأشباح على نطاق واسع وواضح، مما قد لا يشاهده الكائن البشري . . . فلو أن الأرواح تتخذ لها أماكن خاصة، وهناك إمكانية كبيرة في هذا الأمر، فالعينة هذه إذاً، لها مصداقية. ولا بد أن هناك، أسباب لعودة بعض الأرواح الينا، والبعض الآخر لا يفعل، ولماذا، استطراداً، تسبب بعض الحوادث غير المهمة شبحها، وأخرى تراجيدية لا تسبب بشبح. كذلك يبقى سؤال: لماذا يبدوا النوع الرومانسي من الأرواح أكثر عدداً من غيره؟

ولعدة قرون مضت، هناك اعتقاد سائد أن الأرواح الهائمة قد تعود إلى حياة شابة تم القضاء عليها بوحشية وعلى حين غرة، مما يخلق روحاً غاضبة طالبة للثأر.

وهذا الاعتقاد كان أكثر شيوعاً بين رجال الدين في المدنيات الأولى الذين كانوا يقدسون ذكرى دفن موتاهم من ملوك وزعماء، بذبح ضحية بشرية شابة ودفنها في القبر الملكي. الفكرة لديهم كانت بخلق أرواح شابة نشطة لحراسة وحماية الملك الراحل في رحلته نحو الأبدية، ولقد مارس هذه الطقوس العديد من البشر الأوائل بمن فيهم الصينيون من سلالة شانغ في العصر البرونزي، والميسينيين اليونان ذوي الحضارة المعروفة، والسومريين والأزتيك المكسيكيين، وكانت نوع من الممارسات الدينية على طول العالم وعرضه. ولقد اضمحلت هذه الممارسات بمرور العصور وتقدمها نحو الأزمنة الحديثة نسبياً حيث كانت الأرواح البشرية الشابة تدفن حية في أسس الأسوار والأبنية، ويتم اكتشاف عظامهم حتى أيامنا هذه.

يبدو أن نظرية خلق الحياة الشابة لروح غاضبة وراءها قد توالدت من وراء العديد من الأرواح التي لها صلة بالجريمة. وخاصة القتل. فجريمة القتل لا تزال حتى اليوم السقطة المجردة في محيط العذاب البشري، هذا إذا لم نعد المذابح الرسمية النظيفة التي تجري على يدي الطغاة منذ بداية الزمان، ضمن شروط الجرائم.

أعداد الأطفال والأحداث في السن ممن كانوا ضحايا للقتل لن يتم حصره مطلقاً، فالعديد من هذه الجرائم لم تكتشف، والمجرمون، كالعادة، نجوا من قصاص العدالة، مع إنهم حكموا لجرائمهم.

ومثل هذه الحالة كانت قضية مقتل جان كلوسون في دائرة كيدبروك في لندن عام 1871. وكانت جان خادمة في منزل صاحب مطبعة في غرينوتش

يدعى أبنيزر پوك، وكانت في السابعة عشرة وجميلة، وأغواها إبن پوك الصغير، إدموند، البالغ العشرين من عمره. ولم يكن ما حصل بينهما مجرد إغواء عابر، بل كان علاقة مستديمة، استمرت عدة أشهر كان من نتيجتها أن حملت جان.

واكتشف السيد والسيدة پوك ما كان يحصل تحت سقف بيتهما المحترم الطاغي عليه مخافة الله، وطردا جان على الفور، مع إنهما أنكرا فيما بعد أن ذلك كان سبب طردها. وانقلبت جان، دون حكمة منها، نحو إدموند ليساعدها، فهو كان قد وعد الفتاة بكل الوعود الكاذبة الزائفة كي ينال وطره منها... ولكن إدموند لم يكن لا راغباً ولا قادراً على مساعدتها وإعالتها، وبالطبع، غير قادر على الزواج منها. وكان شقيقه قد اجتذب كل الغضب الأبوي إليه بزواجه رغماً عن والديه، وهو لذلك، لا ينوي مطلقاً إثارة غضب أبيه بنفس الطريقة.

ولكن جان كانت من النوع الملحاح، وكانت تصر على أنه يتوجب عليه أن يقوم بما هو لائق معها بطريقة أو أخرى... وكانت المسكينة يائسة بالفعل في ذلك العالم القاسي من القرن التاسع عشر، ودون أهل تلجأ إليهم.

ودبّر إدموند أمر لقائها، وقد ملأ أسماعها وعوداً كان ينوي أن لا يفي بها مطلقاً في منطقة بلاك حيث أمسية السادس والعشرين من شهر نيسان عام 1871... وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي... وجدت مضروبة إلى ما يقارب الموت في منطقة كيدبروك، ملتقى العشاق في ذلك الزمان. وتوفيت في المستشفى دون أن تستعيد وعيها. وحوكم إدموند لقتلها، ولكن القاضي حكم بأن كل التصريحات التي تفوهت بها جان قبل موتها، والتي تدينه بالكامل، كانت أقاويل لا يمكن قبولها كوقائع، ووجد غير مذنب ورفعت المحاكمة عنه.

وخلق الحكم ضجة وحدثت اضطرابات في غرينوتش. وكذلك حدثت اضطرابات في المستويات النجمية الفلكية كما يبدو.

ولكن شبح جان لم يظهر ولم يعد إلى مسرح الجريمة ويظهر في كيدبروك، إلى أن وجد إدموند غير مذنب وأطلق سراحه. والجدير بالذكر، أن هذا الجزء من لندن قد تم بناءه في السبعينات من هذا القرن ولم يعد يظهر شبح جان هناك. ولكنه في تلك الأيام كان أرضاً ريفية ممتدة من كيد بروك حتى ايلثام.

كما ذكرنا، كيد بروك كانت منتجعاً شعبياً للشبان والشابات الذين يقصدونه من الجوار لتبادل الغزل. . . وكان طريقاً ضيقاً تظلله الأشجار والشجيرات الشائكة الطويلة، يقطعه جدول صغير يدعى «كيد». . . ويمتد الطريق عبر حقول الذرة والأرض الزراعية، ويوفر العديد من الأماكن المستظلة المختبئة التي تؤمن الخلوة للعشاق.

ليلة الجريمة مرت دوريات منتظمة لرجال بوليس مسلحين. وكانت جان قد ضربت حتى الموت حوالي الثامنة والنصف وتركت ملقاة عند حافة الطريق حيث مر رجل البوليس مرتين بها دون أن يلاحظها. حوالي الفجر استعادت وعيها جزئياً. وزحفت إلى منتصف الطريق حيث مر بها البوليس في دوريته الثالثة، وكانت تتأوه قائلة «آه. . . رأسي! رأسي!» وكان وجهها ورأسها محطمان بصورة مريعة، بواسطة مطرقة حديد، كما علم فيما بعد، ووجد أن أداة الجريمة كانت مطرقة لها طرف فأس من الجهة الأخرى ومقبض خشبي طويل، مما جعلها سلاحاً قاتلاً جداً. . . العشاق تلك الليلة سمعوا بعض الصرخات، ولكن ما من أحد أزعج نفسه كي يعرف مصدرها.

وسمعت صرخات جان المدوية المذعورة مرات ومرات فيما بعد في كيدبروك وشاهد العشاق شبحها في ثوب أبيض، ووجهها تغطيه الدماء

صرخاتها المرعبة استمرت تُسمع على مدى سنوات إلى أن اختفى طريق كيدبروك نهائياً، مثله مثل كل الأراضي الزراعية ما بين إيلثام وطريق شوترزهيل التي زحف إليها البناء السكني، وفي مكان الطريق القديم شق طريق يدعى الآن طريق روتشستر العام، وغُطي الطريق القديم بالأبنية والإسمنت. وعندها فقط هجر شبح جان الهائم المكان الذي لم يعد يتعرف إليه حيث ضربها عشيقها حتى الموت.

النصير الوحيد الذي انتصر لجان في هذه الدنيا كان رجل يدعى نيوتن كروسلاند، الذي كتب كتيبات تشهير متعمدة ضد حكم براءة إدموند بوك. وأحيل إلى المحاكمة ولكن إدموند بوك، لم يحصل سوى على تعويض إسمي، لأن محامي كروسلاند البارع سرجنت باري، قدم دفاعاً رائعاً بناه على أساس أن إدموند مذنب بمقتل جان، وكان يمكن أن يدان ويحكم عليه لولا أن ردّ القاضي الإثباتات إلى أنها إشاعات.

إلا أن الإنسان لا يمكن أن يحاكم مرتين لنفس الجريمة. . . على الأقل في عالمنا هذا. وسيكون من دواعي الاكتفاء النفسي أن يفكر المرء بإعادة محاكمة إدموند في العالم الآخر حيث يلقى جزاءه. قضية بوك لم تتمتع بالشهرة التي وصلت لها قضية ماريا مارتن والمخزن الأحمر. فها هنا فتاة أخرى مظلومة قتلت ضرباً ودفع المجرم هنا العقوبة وبقى ملتصقاً بهذه الأرض كي تحوم روحه في مكان جريمته.

بالمقارنة مع جان كلاوسن، ماريا مارتن كانت فتاة أكثر تلوثاً عندما قتلها ويليام كوردو في «الردبارن» أي المخزن الأحمر الخالد الذكر. فقد كان لها يومها طفل غير شرعي من شقيق ويليام الأكبر، توماس، وطفل آخر من رجل يدعى ماثيو. فقد كانت جميلة جميلات قرية «سوفولك» من مقاطعة «بولستيد» وكانت قطعاً متحررة من كل القيود. الريفيون في «سوفولك» كان لهم سمعة فاسدة خلال القرن التاسع عشر، كما توضح

خلال قضية «بيسنهال» عام 1902، وما إذا كانوا يستحقون هذه السمعة أم لا، فهذا أمراً آخر.

حصل ويليام وماريا على طفل غير شرعي، مات بظروف غامضة. . . وقام والد ماريا المسنّ بالضغط على ويليام، والذي أصبحت أحواله المادية أفضل بعد موت أبيه وشقيقه. وطالبه بأن يحوّل إبنته الزانية إلى سيدة محترمة. وبدا أن كوردر المتمنع قد رضي أخيراً، مشترطاً على أن تذهب عروسه المفروضة معه سراً. ولكنها لم تبتعد إلى أكثر من المخزن الأحمر «رد بارن»، حيث وضعها في برميل ودفن البرميل تحت أرضية المخزن الترابية.

ولم يكن ويليام كوردر بالمجرم الذكي، وأوقع بنفسه عندما كتب عدة رسائل حول ماريا إلى عائلتها أثارت الشبهات من حوله، وخاصة لدى زوجة أبيها الشابّة، التي حلمت مرتين، كما صرّحت إن ويليام قد أطلق النار على ماريا ودفنها تحت الأرض في المخزن الأحمر.

وتم نبش أرضية المخزن، وتبين أن حلم السيدة آن مارتن المذهل، هو حقيقي، وكان كوردر في هذه الأثناء قد تزوج معلمة مدرسة التقاها من خلال «باب التعارف» المنشور في صحيفة الصنداي تايمز عام 1827 ويعيش معها في لندن. وكانت القضية ضده ساحقة وأعدم شنقاً وعلناً خارج أبواب سجن «بوري سانت إدموند» في الحادي عشر من آب عام 1828. . . وأوقف جميع عمال البلدة في ذلك اليوم أعمالهم للتفرج على تنفيذ الحكم.

حلم آن مارتن المذهل الذي قاد إلى حتف كوردر أُعطي تفسيراً طبيعياً أكثر على لسان القرويين الذين يعرفون شخصيات هذه المأساة ويؤمنون بأن زوجة الأب كانت تكره ماريا، والتي، كما قالوا، وضعت الفكرة في رأس ويليام، كي يجر ماريا إلى المخزن الأحمر ليقتلها ويدفنها هناك. ووافق

ويليام مع وعد بأن يرسل المال تباعاً لأن مارتن كرشوة لها كي تبقى صامتة. ولكنه توقف عن إرسال المال بعد فترة فقامت بخيانته وفضح أمره. . . من أجل بضعة جنيهات فقط. وخلال محاكمته لم يستطع اتهامها بمشاركته في الجريمة لأن دفاعه كان قد أنكر التهمة تماماً.

بعد الجريمة سرت نظرية أكثر تصورية رويت في المنطقة بأن ويليام كوردر كان على علاقة غرامية بآن مارتن الشابة الجذابة والتي لا تكبر ماريا سوى بسنة أو سنتين. وحسب الرواية خططت آن للجريمة لتتخلص من إبنة زوجها وإبعادها عن طريقها كي يتسنى لها الهرب مع وليام كوردر.

كلا النظريتين دعم الفكرة التي ساورت أكثرية الناس يومها بأن آن إنما اختلقت تلك الأحلام كي تنتقم لنفسها من كوردر لأنه تخلى عنها.

ولقد توقع الجميع ظهور روح ما نتيجة هذه الدراما الشنيعة فبعد اكتشاف جثة ماريا مباشرة، حصل إنذار خاطيء، حول بروز شبحها حسب الطريقة التالية.

تجمع المتفرجون في المخزن الأحمر «رد بارن»، مع أن عددهم كان أقل مما قد يكون اليوم. ففي ذلك القرن كانت تجري الإعدامات والتنفيذات المرعبة علناً، وتتم النقاشات حول شخصيات الحدث. وصل رجل إلى المخزن الأحمر ليجده فارغاً. ودخل ليلقي نظرة إلى القبر الفارغ، حيث نبشت بقايا ماريا مؤخراً. دافع مَرضيّ خاص دفعه لأن يستلقي داخل القبر. وفي ذلك الوقت عينه، رجل وسيدة، مدفوعان بنفس الفضول، دخلا المخزن، وقفز الرجل واقفاً من القبر وركض هارباً. وظن الزوج المستمر أرضاً، في نصف عتمة المخزن، أن شبح ماريا هو الذي خرج من القبر المليء بالشرور، فصرخت السيدة وأغمي عليها في الحال.

ولكن ما ثبت فيما بعد، أن شبح ماريا لم يظهر على الرغم من واقع أن بقايا جسدها دفنت ونبشت ثلاث مرات. ولكن الشبح ظهر بسبب الطريقة

التي عرضت فيها جثة القاتل بعد الشنق.

فبعد أن قطع الجلاد حبل المشنقة وأنزل الجثة، قام ببيع قطع من الحبل تبلغ الإنشين طولاً بمبلغ محترم إلى الجمهور الذي كان يحتشد حول المشنقة. والاعتقاد السائد يومها أن الحبل يحمل مزايا سحرية بعد عملية الشنق.

وأخذت الجثة بعد ذلك إلى مدفن سانت إدموند، في شيرهول، لإجراء عملية التشريح، وهي عملية مذهلة تجري علناً على حساب السلطات في تلك الأيام. وجرى فتح الجثة من العنق إلى أسفل البطن، وفتح الجلد إلى الخلف لكشف ما تحته. وبقيت الجثة مفتوحة هكذا على الطاولة، ومر أمامها خمسة آلاف شخص ليتفرجوا عليها، على هذا العرض الشنيع المرعب للجزارة البشرية، واستمر التدفق البشري يمر على الجثة طوال النهار. وعند السادسة مساء أقفلت الغرفة في وجه آلاف من ذوي النفوس المتقززة الذين تجمعوا لرؤية ذلك المنظر الكريه.

في داخل الغرفة، قام فنانان، بمساعدة ولد في الرابعة عشرة من عمره أمسك بالجثة الجافة من الدماء، بصنع عدة أقنعة موت تصور الرجل المشنوق. وهذه الأقنعة، التي لا تزال محفوظة، تحمل القليل القليل من الشبه لويليام كوردر... فالشنق لا يمدد العنق فقط بل إنه يشوه الملامح أيضاً.

في اليوم التالي، أخذت جثة كوردر إلى مستشفى وست سوفلك الحكومي وخصصت تماماً للتدريس واستخراج المعلومات لطلبة الطب منها... وهؤلاء الطلاب على الأقل كان لهم اهتمام شرعي بهذه العملية. وهيكل كوردر العظمى لا يزال محفوظاً في المستشفى إلى يومنا هذا ويستخدم في تدريس علم التشريح، وهو مكتمل ما عدا الجمجمة.

عدة جراحين انشغلوا يومها بالعمل على البقايا المريعة... جزء من جلدة الرأس جففت وحفظت ولا تزال موجودة... كتابة تسرد عملية محاكمة كوردر لا تزال مخطوطة على جلد مدبوغ من كوردر، وهي لا تزال تزين رفوف متحف قاعة مويس، في (بوري سانت إدموند).

ومع ذلك فإن روح الرجل المذنب ما كانت لتضطرب كثيراً لاستخدام جثتها بهذه الطريقة... ولكن ما حدث للجمجمة هو الذي سبب ظهور الروح.

فقد سرقت الجمجمة من الهيكل العظمي الموجود في المستشفى على يد الدكتور كيلنر، الذي استبدلها بجمجمة أخرى كان يمتلكها. وأخذ الدكتور كيلنر الجمجمة معه إلى بيته، ولسبب ما يعرفه بنفسه، أجرى عليها عملية تلميع ووضعها في صندوق من العاج. وتم له هذا بعد خمسين سنة من عملية الشنق.

ومنذ يوم وضعت الجمجمة في الصندوق، لم يعرف ذلك المنزل الراحة. فالجماجم، كما هو معروف عبر العديد من قصص الأرواح لها قوة غير عادية لخلق ما لا حصر له من الأذى والاضطرابات. وأغلب الظن أن هذا بسبب اعتقاد الأرواح التي تركت تلك الجماجم إنها مركز العقل والأفكار، لذلك فهي ذات أهمية لها.

وكما ظهر، انزعجت روح كوردر كثيراً من عمل الدكتور كيلنر وبدأت تطارده بطريقة مهدّمة للأعصاب. كانت الشموع تنطفيء، والأبواب تصفق، ويظهر رجل غريب، في ثياب قديمة الطراز، بطريقة غامضة، ويختفي بطريقة غامضة أكثر.

ووجد الطبيب بعد فترة أنه مُطارد من روح الرجل الذي أقفل على جمجمته الصندوق كي يرضي رغبة شخصية لن يستطيع تحمل نتائجها، مع إنه لم يكن ممن يؤمن بالأرواح. ففي أي اتجاه يذهب، كان يسمع

وقع خطوات وراءه ويشعر بأنفاس ثقيلة فوق كتفيه. في الليل كانت أبواب المنزل تُفتح وتصفق بعنف، وكان سكان منزله المرتعبين يسمعون ضرباً مرعباً بالمطرقة وأصوات نحيب تنتشر من غرفة للجلوس حيث توجد الجمجمة داخل الصندوق العاجي.

وكان الدكتور كيلنر، بالرغم من عدم إيمانه بالأرواح، قد أصبح يعرف جيداً أن سرقته لجمجمة كوردر هي سبب كل المشاكل، التي سرعان ما امتلكت قلوب كل سكان منزله بالرعب. وبدا له أنه يجب أن يتخلص منها... ولم يكن وارداً لديه أن يعيدها إلى مكانها الأصلي في المستشفى، فقد كانت ملمعة ونظيفة وكأنها عظم قوقعة السلحفاة، وتختلف تماماً عن بقية الهيكل العظمي لكوردر، كما أن العديد من الأسئلة ستطرح.

دون جدوى، كان يأمل أن تهدأ روح كوردر وتستقر، وفي أحد الليالي استيقظ على أحد تلك الأصوات المزعجة وخرج نحو باحة السلم يحمل شمعة، ليشاهد مقبض باب غرفة الاستقبال تدار بيد شبحية بيضاء. وما إن فتح الباب بيد الشبح حتى فوجيء كيلنر مذهولاً، بصوت انفجار وكأنه إطلاق النار.

وركض نازلاً السلم ليدخل غرفة الاستقبال حيث قابله شبح تلفه الريح الباردة. وكان الصندوق العاجي الذي يحتوي على الجمجمة ملقى وهو محطم فوق الأرض، والجمجمة نفسها لم تكن متضررة وموضوعة على أحد الرفوف في الخزانة.

بعد هذا، لم يضع الطبيب وقته في التخلص من تذكاره الجالب للشر، فأعطاها إلى صديق له يدعى السيد هوبكنز وهو ضابط شرطة سجون متقاعد والذي كان قد اشترى أرض مدفن سانت إدموند حيث شنق كوردر ويعيش في منزل مديرها.

وعلى مضض منه، تقبّل ضابط السجون المتقاعد الهدية غير المرحب بها وأخذها إلى منزله حيث لفها بمنديل حريري.

وفي طريقه إلى منزله وقع والتوى كاحله، وتدحرجت الجمجمة، تضحك بشكل شرير، أمام سيدة مارة أغمي عليها في الحال.

وكانت هذه الحادثة مجرد البداية للكارثة على هوبكنز أيضاً. فحدثت اضطرابات صحية في العائلة، واضطرابات مالية هاجمته بسرعة. وقام بعمل أحكم شيء... فأخذ التذكار الكريه إلى مقبرة ريفية حيث قدم رشوة لحفار القبور كي يدفنها دفناً دينياً لائقاً.

وهكذا حصلت جمجمة كوردر على رغبتها الحماسية بالسلام. ومنذ ذلك الوقت، كما قيل، ازدهرت عائلتي هوبكنز وكيلنر.

وهكذا نرى، أن هذه الأرواح الناتجة عن الجريمة ليست متشابهة... ففي قضية ويليام كوردر، عاد من الظلال بعد خمسين سنة على جريمته وإعدامه، ليس بسبب انزاعجه أو اضطراب روحه، بل لأنه، كما يُعتقد، انزعج من استخدام جمجمته الثمينة لديه... وهذا نوع متخصص من الأشباح. فهم يتأثرون جداً لجمجمة جسدهم الفاني أو بقاياهم المستخدمة، والجمجمة قد تخلق في هذه الحالة أكثر أنواع الأشباح مطاردة.

شبح آن كلوسون طاف في طريق كيد بروك في احتجاج مستمر لأن قاتلها لم يدفع ثمن جريمته. وضحايا «لاندرو» المجرم الفرنسي الشهير، قيل إنهم كانوا يهيمون في غابة «رامبوليه» والتي لا تبعد كثيراً عن فيللته الشهيرة «إرميتاج» حيث اعتاد أن يغوى النساء ثم يقتلهن لأجل القليل مما يمتلكن من مال أو مصاغ. ولقد أدين «لاندرو» وأعدم في الخامس والعشرين من شباط عام 1922.

ربما تكون النوعية المتخصصة لضحايا «لاندرو» هي التي سببت أشباح

«رامبوليه» غير المستقرة. فقد أدين لقتله أحد عشر إمرأة، مع أن الاعتقاد كان سائداً بأنه قتل أكثر من هذا بكثير. ولقد أذاع البوليس الفرنسي العدد في مرة من المرات بثلاثماية. والعويل المخيف المرعب في غابة «رامبوليه» سمعه الكثير من الناس. ولعدة سنوات بعد إعدام «لاندرو» استمر اكتشاف جثث مدفونة في الغابة... ولم يحل لغز هذه الجرائم أبداً.

الخرافات المحلية، تقول أن لاندرو بنفسه، والذي تقدم من المقصلة وهو يحتج صارخاً حتى النهاية ببراءته في وجه إثباتات لا مجال لضحدها، عاد إلى مسرح جرائمه السابقة كروح شريرة تدخل في أجساد إناس إبرياء وتدفعهم لارتكاب تلك الجرائم التي اكتشفت بعد إعدامه. وهذه الخرافات على الأقل تفسر سبب بقاء تلك الجرائم غامضاً. فالجرائم التي دون دافع هي من أصعب الجرائم على الحل.

ديك توربين، الذي قُدّس فيما بعد، كان في الواقع فظاً خشناً وسفاحاً شريراً، على الرغم من الخرافات الرومانسية التي حيكت حول إسمه. فقد كان يضرب ضحاياه ويعذبهم بقساوة لا تعرف الرحمة.

في إحدى المرات حطّم جمجمة مزارع عجوز ثم صب الماء المغلي فوق رأسه، بينما كان يتناوب مع رفاقه على اغتصاب الخادمة المسكينة. وفي حادثة أخرى، بعد أن جوبه برفض إمرأة عجوز أن تكشف مكان وجود أشياءها الثمينة صاح: «فليلعن الله دمك أيتها العاهرة العجوز! إذا كنت لن تقولي لنا فسأشوي جسدك في الفرن» ووضع هو وعصابته السيدة العجوز المسكينة فوق النار إلى أن اضطرت أخيراً أن تخبرهم بمكان وجود مالها.

ولقد شنق تروبين في «يورك» عام 1739 بقفزه عن السلم لتأمين نهاية سريعة لحياته. وعلى الرغم من أعماله الوحشية، كان مجرماً شعبياً مشهوراً في زمانه. وتم إعدامه وسط صياح المحتشدين المتحمسين..

ولكن يبدو أنه لم يلق الترحاب عينه في العالم الآخر، لأن شبحه المعذب كان يشاهد راكباً على جواد في بلدة «لايتون» والمرأة التي (شواها) فوق النار متعلقة في ظهره.

جاك السفاح، سبب أكبر الجرائم إثارة في القرن التاسع عشر، واجتذبت أحداثه المميتة الناس لطبيعتها النفسية الخارقة للمألوف، وكان هذا عام 1888. قصص ظهور الأشباح كان من الطبيعي أن تظهر بعد تلك الجرائم الموصوفة. فقد شوهدت إمرأة دون رأس تجلس ليلة بعد ليلة على جدار في شارع «هانيوري» في الموقع الذي قتلت فيه آن تشابمان، سبعة وأربعون سنة، وتم تشويه جسدها وبتر رأسها بطريقة وحشية على يد جاك السفاح، الذي أرجع رأسها إلى مكانه بربطه بمنديل.

وفي مقاطعة «ميللر» حيث قتل جاك آخر ضحية معروفة له، ماري كيللي، أخذت صدى صيحاتها الشبحية تسمع لمدة طويلة. بعض الناس يشيرون إلى أن جرائم جاك السفاح، كانت متصلة بنوع من السحر، وأن جرائمه نوع من السحر الأسود. ومن الطبيعي أم نلحظ أن كان يوحي بنوع من الطقوس في طريقة تدبير ليس فقط ترتيب ما تمتلكه الضحية من النساء المقتولات، بل أيضاً بترتيب الأعضاء التي يستأصلها من أجسادهن. ولقد لوحظ هذا بشكل خاص في قضية ماري كيللي... الجريمة الوحيدة التي ارتكبها داخل غرفة معزولة عن الناس. واعتقد العديد من الناس إنه في هذه الجريمة كانت تتملكه أفكار عن التضحيات البشرية وتحتوي على روح سحرية.

ومع ذلك، فهو لم يلق القبض عليه، وعلما النفس إضافة إلى علماء الدين، لديهم أكثر من تفسير معقول لهذه الأعمال.

شبح عزبة «اتشيلز»

عزبة «اتشيلز» في هامبشاير، كانت صغيرة ولكنها مع ذلك قصر ريفي جميل، يقع ضمن أملاك تبلغ عدة مئات من الأكرات من المتنزهات والأراضي الزراعية (الآكر أربعة آلاف متر مربع).

حوالي نهاية القرن السابع عشر، كان مالك عزبة اتشيلز، المحترم «باتورست». . . وكان رجال عائلة «باتورست» أزواج طيبون لم يجمعوا لأنفسهم الكنوز. وهذا لا يعني أنهم لم يكونوا مرتاحين في عيشتهم. . . ولكنهم لم يكونوا على نفس مستوى الغنى لأصحاب الأملاك الآخرين، وخاصة جيرانهم عائلة «بوشنيلز».

كل رجال عائلة باتورست اختاروا زوجاتهم من معارفهم الإنكليزيات. . . لذلك صُدم أهل المقاطعة عندما عاد والد المالك الحالي «المحترم باتورست» إلى «واتشيلز» من رحلة له في أوروبا آتياً معه بزوجته الإيطالية. والتي إلى جانب امتلاكها ثروة صغيرة، تمتلك لقباً عالياً هو الماركيزية.

ولم يكن هذا الأمر الوحيد الذي فَرق السيدة «باثورست» عن مجرى

حياة «اتشيلز» العادي. فقد كانت سمراء، بينما لون العائلة المعروف كان أبيض أو أشقر، ولكنها كانت جميلة بشكل خاص، تنافس بجمالها معاصرتها الكونتيس ساونمبتون، والتي كانت ذات جمال أخاذ في ذلك الزمان. ومع أنها كانت دوماً نقطة الارتكاز في مصدر الضحك والمرح، فقد كان في أخلاقها قلة سيطرة على الأطباع وطبقة عريضة من الكآبة والنكد، لا تتمكن، أو لا تريد، أن تسيطر عليها عندما تثار إلى أي درجة كانت.

وفي خلال سنة من وصولها، ولدت صبياً، قدره أن يصبح يوماً «المحترم باتروست» الذي نتحدث عنه. وفي السنتين التاليتين، قدمت لزوجها ابنتين، وكان أولادها الثلاثة يمثلون مساهمتها في هذه العائلة. وبما أن الطبيعة تبدو سعيدة بالمتناقضات، فقد كان الصبي أسمر، أناني مهزوز الطباع كأمه، بينما كان للفتاتان لون أبيهما الأشقر المشرق لذلك لم يكن غريباً أن يكون الصبي هو الأثير لدى أمه، مع أن هذا كان لسوء طالعه، فقد شجعته لأن يكون شبيهاً لها أكثر من شبهه لعائلته. ووافقت معه أن يسعى لصداقات بين من هم أكثر راحة في المركز والثراء.

وبهذه الطريقة تعرف على عائلة «بوشنيل» ثم أصبح صديقاً حميماً لهم. بعد أن علمت العائلة أن ميلاده يوافق ميلاد وريثهم، وكان روبرت بوشنيل يختلف عن الكسندر باتورست في أوجه عديدة. ففي سن الخامسة عشر لم تكن قوة روبرت قد نمت بنفس نسبة سنه. مما جعله نحيلاً جداً وشاحباً، وأبقاه هذا في حالة دائمة من التراخي والكسل، بحيث أخذ يذبل بدل أن ينتعش. ومع أن الأطباء أكدوا لوالديه أنها مرحلة عابرة، فقد نصحوهم بأن يدللوه قليلاً.

وفي ظل تأثير الدلال، وتأثير عوزه العام للقوة، أصبح الشاب مفسوداً وأنانياً. وسرعان ما بدا أنه يتمتع بسوء صحته. لأنه اكتشف أنها توفر له سلاحاً رائعاً ليحصل على ما يريد. فاستخدمها أساساً، وفي البداية ضد معلمه الخاص، الجبان المسكين التعس والذي كان إبن عم بعيد له

ويعتمد في وجوده على ما يكسبه من مال لقاء تعليم قريبه الثري.

حملة روبرت لمضايقة المعلم، وصلت إلى قمتها بحيث أحس الشاب أن الجوع هو أهون الشرين، وتقدم بشكواه من أهل روبرت. . . وغضب السير جورج، البارون الرابع، وتحدث جدياً مع زوجته. . . فقالت:

- الولد المسكين يحس بالضجر، بالطبع.

واقترحت أن يؤتي بأخويه من «إثين» ليبقياه متسلياً. ولكن السير جورج رفض. عندما خطرت فكرة لليدي بوشنيل. . . فاستدعت عربتها وزارت السيدة باتورست، وبعد محادثة قصيرة اتفقت السيدتان على اشتراك اليكسندر باتورست وروبرت بوشنيل التعلم على يد أستاذ واحد علهما يصبحان صديقان.

ولحسن الحظ أحب الولدان الغريبا الأطوار بعضهما في الحال. وانغمسا في هذه العلاقة الجديدة حتى أنهما لم يعد لديهما الوقت يخصصانه للأستشاد على أستاذهما. فقد كانت علاقة من نوع لم يجربها أي منهما من قبل، مع إنهما، ومن الواضح كانا يتوقان إلى مثلها دون وعي. إضافة إلى هذا، فلإلكسندر باتورست ميل طبيعي للعلم. وهكذا اشتعل روبرت بوشنيل بحماسة شديدة كانت مكبوتة. حتى أن المعلم نفسه وجد أن مهمته في تعليمها لم تعد عذاباً، بل سعادة.

التدبير الرئيسي كان ينص على أن يعيش الكسندر مع عائلة بوشنيل من الاثنين حتى الجمعة. . . وبعد فترة بسيطة وجد الولدان أن فراقهما، وحتى ليومين من أصل سبعة أيام، هو أمر أكثر مما يتحملان، لذا وافقت والدة الكسندر على بقاءه بصورة دائمة فيما أصبح بسرعة بيته الحقيقي.

واغتبطت الوالدتان، ولكن السير جورج قال متذمراً:

- لا تكوني متفائلة زيادة عن اللزوم ليدي بوشنيل. فوجهة نظري أن الأمر

أجود من أن يدوم.

نظرته هذه كانت مخطئة، فكلما امتدت تلك العلاقة، كلما أصبح الولدان متعلقان ببعضهما. . . وفيما بينهما كانا مختلفان جداً عما هما مع الآخرين، مع أنه، وحتى في هذا الشأن تغيرا. لم يتخاصما مطلقاً، لم يتصرفا بأنانية، وكانا يدعمان بعضهما بكل الطرق.

ويجب الكشف، على كل الأحوال، أن روبرت بوشنيل كان صاحب الشخصية المسيطرة، ومن الاثنين، كان ألكسندر من يمهد الطريق للوفاق، باستعداده الدائم أن يستسلم ويتجنب بهذا الصدام بينهما. ولكنه كان راضياً تماماً بهذا الدور، فمع أن ولعه بروبرت كان حقيقياً، فقد كان له دوافع جيدة، خاصة وسرية بالكامل، في أن لا يفعل شيئاً للفصل بينهما.

دافعه كان بسيطاً. فعائلة بوشنيل تعيش في حالة بذخ لا يسمح به دخل عائلة باتورست. لم يكن لهم أي احتساب للمال، كما كان هناك تقطع في الدخل في عزبة اتشيلز عندما يكون الموسم سيئاً، حيث يكون العاملون أقل إنتاجية أو الإيجارات غير كافية، وحتى ثروة الماركيزة لم تكن كافية لتغطية مثل هذه التراجعات المؤقتة، وعندما تظهر، لا يعاني منها فقد أفراد العائلة. . . . بل يطلب من كل ساكني المنزل المساهمة بالاقتصاد العام.

ولكن ما كانت السيدة باثورست تدعوها «أوقات الفقر» لم تكن السبب الرئيسي، مع أنه سبب جوهري، لتصرفات ولدها نحو عائلة صديقه وظروفها بل كان الجو العام من الارتياح والحياة الرغدة التي كانت تعم على عائلة بوشنيل. مثلاً: كان لديهم جيش ضخم من الخدم كان دائما في متناول اليد في أي وقت يحتاجهم أحد. ولم يكن الأثاث باهتاً بسبب أجيال ممن استخدموه، والعوز إلى المال لإصلاحه، كما كانت الحال في «اتشيلز» وكان الطعام دائماً لذيذاً. . . «فالشيف» السويسري الذي جاء به

السير جورج معه عند عودته من مهمته الدبلوماسية في بورن. . . كان يهتم بأن يبقى الطعام شهياً، كذلك أن تكون الخدمة على المائدة رائعة. وأخيراً هناك جيب روبرت الذي كان يبقى على الدوام مليئاً، فهو في السادسة عشرة من عمره كان يتلقى مصروفاً يبلغ خمسين جنيهاً في الشهر، تضاعفه له أمع سراً. ومهما كان لصديقه من رغبة كان يشتريها له دون طلب هذه لوالده، كما يفعل في العزبة.

تأثير كل هذا على أي ولد محروم أمر له مميزاته. ولولد ربته أمه كما ربت المركيزة ابنها، ليبقى مؤمنا بأن محيط بيته غير لائق بارستقراطيته ولا بحاجاته، كان لها تأثير لا يمكن استئصاله. . . وتعلم من أمه الدرس بأن للمال ليس فقط القوة السحرية، بل أنه يفعل المستحيل للراحة التي يجدها مطلوبة، ليس فقط لحاجاته الجسدية بل لكيانه الروحي أيضاً، وعندها فقط أصبح مصمماً على أن يقوم بأي شيء لتجنب الشح الذي يفرّق طريقة حياة عائلته عن طريقة حياة الأرستقراطية الحقة.

وبمرور الأيام، أصبح الولدان شابان يافعان. وعندما بلغا العشرين، وبما أن منزل العزاب في قصر بوشنيل لم يكن مسكوناً، وبموافقة السير جورج، انتقلا للسكن فيه وأخذا يؤسسان حياتهما الخاصة، ويدفع روبرت كل المصاريف. وهكذا اضطر ألكسندر أن يتقبل الأمر، وأن لا يفترق عن صديقه، ولكن كم أزعجه أن لا يكون قادراً على دفع حصته من الحياة. ولم تنفع محاولات روبرت بإقناعه، وبما أنهما أكثر من أصدقاء، فإن الأمور المالية لا يجب أن تدخل إلى علاقتهما. وأحس الكسندر بالإهانة للعيش على حساب ثراء بوشنيل، بأكثر مما كان يعترف لنفسه، وأصبح أكثر وأكثر تصمياً على وضع نهاية لهذا الوضع الشاذ الذي يخنقه فيه عوزه النسبي. . . وعندما يصبح المحترم الجديد في اتشيلز سيغير كل شيء.

ومع أن رتبتهم الارستقراطية لم تكن مرتفعة، إلا أن ثراء البوشنيل جعل

روبرت، في الواحدة والعشرين، أحد أكثر العزاب المرغوب بهم في المقاطعة. ومع تقرب أمهات الفتيات الراغبات منه، أبقى نفسه بعيداً عن رفقة الإناث. ولم تكن حفلات الرقص أو الاستقبالات تتشرف كثيراً بحضوره. ورفض الدعوات بالمبيت، وأوضح تماماً، إذا حضر إحدى الحفلات، أن من غير المجدي للأمهات أن يأملن بأن تلقى بناتهن الحظوة لديه. ولو سألته عن السبب لقال لهن:

- طالما أنا واليكس معاً، فلا حاجة لنا بشخص آخر!.

ولكن الأمهات عنيدات، وعلى الرغم من تحذير أزواجهن من إنهم إنما يصرخن في الطاحون، فقد تابعن الأمل.

ولكن آمالهن كان مقدراً لها أن تكون قصيرة العمر. فبعد سنة من انتقال الشابين إلى بيت العزاب، قررا القيام بالرحلة الكبرى. . . وهكذا سافرا، وشاهدا، وانتصرا، وخاصة في إيطاليا حيث أعجبتهما فلورنسا، وقررا البقاء هناك إلى أن تحركهما العواطف.

ولسوء الحظ، وبعد بقائهما هناك عدة أشهر، مات روبرت بوشنيل في حادث غرق باخرة. وتحطم الكسندر باتورست بخسارته لصديقه ولفترة طويلة بدا تحت خطر الجنون، ومُنع عنه قدره، ولم يواجه الوحدة فقط بل العودة إلى اتشيلز وإلى حالة الفقر التي حماه منها صديقه المرحوم لفترة العشر سنوات الأخيرة. ولكن لم يكن هناك شيءآخر يستطيع فعله، إنه قدر قد يصيب أي رجل شاب.

في عودته إلى اتشيلز، وجد أن شقيقته تزوجت، والمحترم والسيدة باتورست في حالة هدنة هشة أثرت في وقت قصير على جو العزبة بكامله. السبب الرئيسي لذلك التباعد الفارغ عن بعضهما هو أن السيدة باتورست كانت تصر على إبقاء مستواها من مستوى عائلة جونز الارستقراطية والوقوع تحت الدين لتخفف هذا. وزاد موت روبرت

بوشنيل من تفاقم هذا الوضع التعس، لأن الماركيزة تنبأت بنهاية عوز آل بوشنيل لخدمات ولدها. وبأن علاقتها الخاصة بالعائلة قد تتغير ولهذا زادت من مجهودها الاجتماعي لتجنب الأمر.

كذلك فعودة الإبن أثرت على المحترم، الذي وجد أن السمعة السيئة التي اكتسبها الكسندر من مرافقته لروبرت أمر مشين. فبينما كانا أطفالاً، يمكن التسامح بعلاقتهما، وهما في الخارج، وبعيداً عن الأنظار يمكن أيضاً إبعاد الأمر عن الذهن. . . ولكن بوجود الشاب الأسمر الوسيم في ثيابه الأنيقة يجول في المنزل، ويداه البيضاء تذكير دائم لأبيه بأنه غير مناسب ليكون محترماً ريفياً يشرف بنفسه على أملاكه، كان يولد في نفس الأب قلقاً أساسياً وشعوراً بالكراهية، لم يستطع صرفهما عن ذهنه، ولكي يعزّي نفسه زاد من شربه.

وبما أن هذا الإدمان يمكن أن يعزي سببه إلى الرجل الذي أصبح الوريث، يمكن القول أن الكسندر باتورست كان مسؤولاً عن موت أبيه وأمه. . . فبعد أقل من سنة ونصف على رجوعه إلى العزبة، أصر المحترم السكير في إحدى الليالي على قيادة العربة بنفسه وهما عائدان من حفلة عشاء. مع جار قريب منهما. . . وكان يستطيع تحمل الخمر كما يليق بالرجل، ومع أن رفاقه كانوا يعرفون أنه قد أفرط في الشرب دون حكمة، لم يحاولوا منعه من الجلوس وراء الجياد بنفسه، فهو مترنح قليلاً ومتردد في الكلام، فقط، ولكن ما أن أمسك باللجام حتى بدا وكأن شيطاناً قد تملكه، وضرب الجياد بالسوط، فقفزت إلى الأمام، مذعورة مندهشة، وانطلقت بسرعة مخيفة. وحاول الحوذي الجالس قرب المحترم الإمساك باللجام من يد سيده، ولكنه هوى إلى خارج العربة ومات. وانطلقت العربة المترنحة عبر أعمدة البوابة التي تحمي المدخل، وصدم أحد دواليبها عاموداً. وطار المحترم من العربة وكسر عنقه، بينما تلقت السيدة باتورست ضربة على رأسها سببت لها نزيفاً في الدماغ، وبعد رقادها غائبة

عن الوعي لعدة أسابيع ماتت بدورها.

وحال أن استفاق من الصدمة، ليس من موت والديه بل من تسلمه الفجائي لمنصب العمدة المحترم لعزبة اتشيلز، بدأ الكسندر على الفور بتطبيق الخطط التي كان قد حضرها سراً خلال السنوات للوقت الذي سيسيطر فيه على أي عائدات تأتيه بها الأملاك. هدفه الرئيسي كان زيادة دخله الشخصي إلى أن يوفر له هذا مستوى حياة عودته عليه صداقته مع روبرت بوشنيل. . . وأدرك أن هذا أمر لا يمكن له أن يحققه بالعمل في الأملاك لوحدها. وعليه أن يستثمر، ولهذا الأمر يلزمه رأسمال.

ولكي يجمع الرأسمال، باع بضعة مئات من الأكرات، ورفع إيجار مستأجري الأراضي عنده، واشترى أسهماً وحبوباً فاسدة، وبهذا كسب بضع آلاف من الجنيهات. . وبهذا الحال سافر إلى لندن وبدأ باستثمار أمواله في شركة الهند الشرقية. وأمنت له هذه الاستثمارات عائدات محترمة، ولكنه بالرغم من هذا أدرك أن الأمر سيطول به قبل أن يمتلك الثروة التي يتمناها.

وفي هذا الوقت بدأ عمل شركة البحر الجنوبي. ولكن المحترم باتورست كان يشك في صلابة موقفها. . . ولكن عام 1719 كسبت الشركة امتيازات أخرى من الحكومة، وهكذا سمح لنفسه أن يعلق بفخ توقعاته وهوسه والتي كانت في هذه الأيام قد بلغت القمة فاستثمر في تلك الشركة ثمانية آلاف جنيه.

وكما يعرف الجميع، جن جنون سكان إنكلترا في الأشهر الأولى من عام 1720. . . الأغنياء والفقراء على حد سواء جمعوا كل قرش معهم لشراء أسهم شركة البحر الجنوبي بأي ثمن. وبحلول منتصف الصيف دفع ألف ومائة جنيه ثمن السهم الواحد الذي كان ثمنه مئة جنيه. وقام رئيس الوزراء يومها «والپول» بجهد كبير لتحذير الناس من المخاطر التي

يركبونها، ولكن القليل التفت إلى كلامه.

ومع أنه لن يستطيع أبداً تفسير الدافع الذي دفعه للتخلص من أسهمه، عندما كانت في أوج سعر لها. إلا أنه هكذا فعل. وأصبح لديه تسعون ألف جنيه، استثمر ثلثيها في أسهم شركة الهند الشرقية. وسافر إلى فلورنسا بهدف واحد هو التأثير على الأصدقاء اللذين كانوا له ولروبرت بوشنيل بوضعه المالي الجديد.

ومضى وقت ليس باليسير قبل أن نصل إلى مسامعه أخبار انفجار فقاعه وهم شركة بحر الجنوب، وعندما عرف بها عانى من صدمة قوية. ولم يضع وقته فسافر إلى لندن برفقه خادمه الإيطالي. وعندما علم كيف أنه نجا من الإفلاس بأعجوبة، وبدلاً من أن تتلاشى صدمته، ازدادت وولدت في نفسه كراهية للتجارة. . . فسحب كل استثماراته من شركة الهند الشرقية، وحوّلها إلى ذهب. . . ثم انسحب إلى عزبة «اتشيلز»

والآن، وقد أصبح ثرياً بما فيه الكفاية ويزيد، وبإمكانه إحاطة نفسه بالفخفخة التي تعلم أن يرغب فيها. . . فقد بدت تجربته الأخيرة أنها غيرت شخصيته تماماً، لتحوله إلى بخيل شحيح من الطراز الكلاسيكي، فصرف عنه خدمه ما عدا خادمه الإيطالي ولم يبق من القصر سوى غرفة واحدة مفتوحة له وحده والمطبخ وغرفة الخادم. وباع جياده وعرباته ولم يبق سوى عربة واحدة وحصان واحد، ولكي يوفر مصروف الحوذي والسائس اعتنى بالحصان بنفسه، وطلب من الخادم أن يطبخ ويقوم بواجبات أخرى في المنزل كي يمنعه من أن يصبح قذراً بغياب كل الخدم عنه. . . ولم يعد يظهر في المجتمعات، وبالنادر ما يخرج من المنزل، وبالطبع ليس خارج أملاكه.

وبمرور الزمن، بدا واضحاً للخادم أن سيده قد جن. فكان دائم الشجار معه حول كلفة الطعام، والتي كان الخادم يصر على شراء ما يلزمه

منها. وعندما طلب الخادم بدل ملابس له، نجا بأعجوبة من هجوم سيده عليه بسوط الجياد.

لذا، كان محتماً، آجلاً أم عاجلاً أن يهجر الخادم سيده. وخطط الخادم لهذا، ولكنه خطط لأمر آخر أيضاً.

لقد كان يعرف بوصول صناديق ثقيلة مربوطة بالحديد ومقفلة تماماً، بعد وقت قصير من صرف الخدم. وخمّن أن تكون تحوي أشياء ثمينة. لقد أبقاها المحترم في الغرفة التي ينام فيها، ويقرأ ويأكل، ولم يكن يسمح له بدخولها إلا بوجود السيد ويقفلها المحترم كلما لم يكن فيها.

ولم يطل به الوقت ليكتشف ما تحويه الصناديق. . . فقد كان للمحترم عادة أن يعد محتويات أحد الصناديق كل ليلة قبل أن ينام. وفي إحدى الأمسيات، وبرغبة أن يتحدث مع المحترم، قرع الخادم الباب، ولم يتلق أي رد، فأدار أكرة الباب، ليجد أن الباب غير مقفل.

في البداية خاف من أن يكون شيء ما قد حصل لسيده، الذي كان يعتقد أنه في الغرفة، لأن النور كان ينبعث من تحت الباب، فانحنى ليضع عينه على ثقب الباب ولم يشاهد شيئاً، فالمفتاح في القفل، ولكن بإصغائه لسماع أي صوت قد يجده عن أن المحترم ليس غائباً عن الوعي، سمع صوت رنين معدن وصوت تمتمة المحترم باتروست.

هذا الاكتشاف هو الذي جعل الخادم يفكر. . . لم يكن أحد يأتي إلى منزل العزبة سوى المستأجرين مع إيجاراتهم. والسيد لا يترك الأملاك ولا المنزل إلا نادراً. وهو بنفسه لا يخرج إلا مرة في الأسبوع لشراء الطعام من القرية. وإذا نشر خبر رغبة المحترم في السفر إلى لندن، وإذا قاد العربة بعد تحميلها بصناديق المال ودمية يلبسها ثياب المحترم. فبإمكانه العودة سالماً إلى إيطاليا قبل إن يبدأ أحد بالتفكير بطول غياب المحترم في لندن. وبالطبع سيكون عليه أن يتأكد من إخفاء جثة المحترم في مكان

لا يمكن أن يكتشف، وبهذه الفكرة النهائية أمضى الكثير من أسبوعه الذي تلا يفتح جانب المدخنة في غرفة في الطابق العلوي.

واكتملت خطته، وفي الليلة المختارة، قبل الحادية عشرة بقليل تقدم من غرفة المحترم. . . وخوفاً من أن يكون صاحياً، أخذ معه دواء سوف يرجوا سيده أن يشربه قائلاً أنه قلق على صحته، والتي بالفعل أصبحت مضطربة بسبب نقص الغذاء. وتوقع أن يجد الباب مفتوحاً، كما وجده عندما أدخل إلى المحترم ما يسمى بالفطار أو عندما يكون لا يزال نائماً.

وفتح الباب بصعوبة، فهو مضطر لإمساك الوعاء الذي يحتوي على الدواء بيده الأخرى، وبالشمعة التى ينير بها طريقه في يد واحدة.

وهو يتحرك باتجاه السرير، لم يتحرك المحترم، ولكن ما إن وضع الدواء والقنديل على الطاولة قربه، ومد يده ليقفل الستائر حتى استفاق الكسندر باتورست محدقاً، وبدهشة قفز من السرير. . . وصاح:

- من هذا؟ ماذا تريد؟.
- أنا جوزيبي سيدي. . . إهدأ. . . إهدأ!.
- أوه يا إلهي. . . ظننتك لصاً. . . ماذا تريد؟.
- يبدو عليك المرض سيدي، وأنا قلق على صحتك. ولقد أحضرت لك دواء أرجوك أن تشربه.
- ومن قال لك أن تحضّر لي دواء؟ مثل هذه الأشياء غالية الثمن. . . لا أستطيع تحمل ثمنها!.
- إنها بضعة بنسات يا سيدي، لكل هذا!.
- لا تفعل هذا ثانية دون أوامري!.
- لا يا سيدي، ولكن أرجوك إشربها. لن تتركها دون أن تستفيد منها!.
- أوه حسن جداً.
- إرجع إلى السرير يا سيدي، وسأعطيك الدواء.

- لا. . . لا. . . لقد جعلتني اضطرب، هاتها إلى الطاولة وسأجلس هناك وأشربها.

ولف غطاء السرير حوله واتقدم إلى الطاولة وجلس.

وحمل الخادم زجاجة الدواء والشمعة إلى الطاولة، ووقف منتظراً.

فقال له باتورست:
- لا حاجة لك للانتظار. . .

ولكن ما كاد يلفظ آخر كلمة حتى أحس بمن يمسك بشعره ويسحب رأسه إلى الخلف وبألم حاد يخترق حنجرته، من جراء تمرير الخادم لحد الموس على رقبته.

وفي تصميمه العصبي. . . فهو لم يخطط لذبحه بل لخنقه بوسادة. . . بذل الخادم جهداً قوياً حتى أن الرأس أصبح نصف منفصل عن الجسد. ولكن هذه القساوة كانت جيدة للمحترم، فهو لم ينتفض سوى مرة ثم بصق الدم من فمه على الطاولة ووقع إلى الأمام غارقاً فيه.

وبتحركات باردة متعمدة تابع الخادم عمله. وربط غطاء السرير على رقبة المحترم ورأسه، ورفع جثة الكسندر باتورست على كتفه، وحمله بسهولة إلى الطابق العلوي حيث خبأه في المخبأ الذي حضره له في المدخنة. وأخذ يعمل بسرعة ورشاقة، وخلال نصف ساعة أعاد بناء الثقب الذي أحدثه في جانب المدخنة.

وبانتهائه من هذا، أسرع إلى غرفة العربة وربط الحصان إليها، وقادها إلى المدخل الرئيسي وعاد إلى غرفة المحترم والتي كانت أساساً غرفة استقبال كبيرة. وبدأ يحمل الصناديق إلى العربة. وكانت الصناديق أثقل مما اعتقد، وفي الوقت الذي أخرج فيه أربعة منها أحس بالتعب والإرهاق. كما لاحظ أن ثقلها يضغط بقوة على رفاصات العربة، فقرر

على مضض أن يقتنع بما أحضر. مع أن ما آلمه أنه مضطر لترك صندوقين خلفه.

وعاد إلى غرفة المحترم، ونظف الدم عن الطاولة، ورتب السرير وحمل الشمعة ووعاء الدواء إلى المطبخ، وأقفل باب الغرفة خلفه. وفي المطبخ ارتدى معطفه الكبير وقبعته، وأخرج الدمية التي حضّرها من مخبأها في الخزانة وخرج إلى العربة.

وهو عائد ليقفل مدخل القصر، تملكته رغبة في التأكد من أنه لم يترك أثراً على عمله خلفه في غرفة النوم. ومن حسن حظه أنه فعل، فقد اكتشف أنه نسي إطفاء الشمعة التي عمل في ضوءها، وإنها قد انحنت قليلاً ليقترب اللهب من ستارة حريرية... وبعد بضعة دقائق كانت ستقع وتلهب المنزل كله. فأطفأها على عجل، ووجد طريقه عبر الغرفة على شعاع من ضوء القمر يدخب عبر النافذة.

وأصبح على بعد يارد من الباب عندما أجفل من ضربات عالية وراءه. وسمع صوت المحترم باتورست يصيح:

ـ أخرجوني من هنا! أخرجوني من هنا!.

وصفق الباب وراءه، وبقلب خافق، وعرق بارد. يتصبب منه أسرع نازلاً السلم، يكاد أن يقع، وأقفل الباب الخارجي وصعد إلى العربة.

وعبر الحديقة، وفي الهواء العليل للغابات، تناهت إليه أصوات جرس ساعة الكنيسة تعلن الوقت... منتصف الليل.

وأخذ يحث الجواد النصف ميت من الجوع بالسوط والكلام... وقاد العربة في الطريق الخاصة للعربة... ولكن لا الجواد ولا العربة كانا مناسبين لما يحملانه، وبعد أقل من ميل خارج القرية تنهد الجواد وتوقفت العربة بهذا. وبصوت حاد متهشم تحطمت لوحات أرضية العربة

تحت ثقل الصناديق.

وكاد يفقد عقله من الخوف لما حصل له، ففتح الخادم غطاء أحد الصناديق، وملأ جيوبه بالذهب، وغير خطته بطريقة مأساوية ليتابع سيره على قدميه إلى «ساوثمتون».

واكتشفت العربة ومحتوياتها على يد مزارع بعد وقت قصير من طلوع الفجر، وسارع المزارع في مركبته الخفيفة إلى حاكم المقاطعة السير جورج بوشنيل الذي أسرع إلى المكان... وتفحص الدمية والصناديق، واعتقد أنه عرف على الفور ما حدث. وسارع مباشرة إلى منزل عزبة أتشيلز وأمر بفتح مدخل إلى المنزل، حيث لم يجد المحترم ولا الخادم، كما توقع. فأعطى تعليماته لرفع النداءات في كل المقاطعة، باهتمام خاص لطرقات لندن وساوثمتون، للتفتيش عن الخادم.

واعتقل جوسبي منسيني في مرفأ ساوثمبتون وهو يحاول إيجاد سفينة تحمله إلى فرنسا. وأمام محكمته في وانشستر قام باعتراف كامل وتقبل حكم الإعدام باستسلام.

وقال للمحكمة بعد اعترافه:

ـ إنه الانتقام الكامل لروح المحترك باتورست!

وتحولت أملاك الكسندر باتورست إلى شقيقتيه. ومنذ أن تزوجتا، استقرتا في منازل عائلتي زوجيهما وتوصلنا إلى اتفاق ينص على انتظار وصول إبن كلوي باتورست، الليدي فوكسندين، إلى السن القانونية ليستلم بعدها عزبة اتشيلز ويعيش في منزل العزبة ويدير الأملاك. وشمل هذا بعض التعقيدات حول توزيع ممتلكات المحترم الخاصة، فاتفق على أن تستلم الأختان قسم عادل منها.. وثم تنفيذ كل الاتفاقات دون أدنى أشكال.

وبما أن مارتن فوكسندين كان لا يزال صغيراً، ترك المنزل في العزبة فارغاً لعدة سنوات. . . مع وجود زوجين فيه ليحافظا عليه، مهمتهما إبقاء كل شيء فيه مرتّباً وعيّن وكيل ليدير الأملاك وبعد عدة سنوات من العمل الشاق استعادت عزبة اتشيلز ثانية شكلها الأصلي الممتاز.

اختيار مارتن فوكسندين كسيد لأتشيلز كان اختياراً حكيماً. فمنذ أن تولى إدارة الأملاك عام 1735، وإلى الثمانين سنة التي تلت تقريباً، أعطاها وخلفاءه الاهتمام والرعاية التي لم تعطها الأجيال السابقة من «الباتورست». وكان هناك فارق واحد، على كل الأحوال، هو ما وفّره ثمن أسهم المحترم الكسندر باتورست من شركة البحر الجنوبي من دعم مالي لتجنب الصعوبات التي كانت تمر بالعزبة، والتي كانت تعذب الأسلاف من عائلة باتورست.

وما من شك في أن عائلة فوكسندين كانت ستتابع ملكية عزبة اشتيلز لولا أن صعوبات سيئة الطالع تغلبت عليهم في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. . . فقد كان لمالكها يومها، تشارلز فوكسندين، مثله مثل أسلافه من القرن السابع عشر، صبي واحد بين بنات كثيرين. . . وهذا ما لم يسبب للعائلة قلقاً، لأن الصبي كان قوّياً وصحيح الجسم، ويسير على طريق النضوج والزواج بخطى ثابتة. . . وفي سن التاسعة عشرة كان شاباً نشيطاً حيوياً، لا يهدأ، ويبدو في سعي دائم لما يرضى ولعه بالنشاطات الجسدية. وهكذا استوعب بسرعة تعقيدات إدارة الأملاك، ولكن اتشيلز كانت أصغر من أن تستوعب شخصيتين قويتين من آل فوكسندين. . . وهكذا على أمل يوفر على نفسه القلق لسنة أو سنتين، وعلى أمل وصول ولده إلى سن النضوج ثم الهدوء، إقترح تشارلز فوكسندين أن يقوم إبنه بجولة عالمية، ووافق الشاب على هذا وفي ربيع عام 1814 قطع المانش إلى أوروبا.

وفي العام التالي وصل ريتشارد فوكسندين إلى النمسا، عندها انتشرت أخبار هرب نابوليون بونابرت من منفاه في جزيرة «البا» ووصوله إلى فرنسا. وعلى الفور سافر فوكسندين الشاب إلى بلجيكا، وتقدم للانخراط في جيش الدوق ويلنغتون. وفي الثامن عشر من حزيران عام 1815 شارك في معركة «واترلو» وقتل قبل حلول الساعة السادسة مساء وهو يدافع عن مزرعة «لاهاي سانت».

ولم يستعد تشارلز فوكسندين كامل رشده من صدمته بموت إبنه. ومات في ربيع عام 1818. وقررت أرملته، والتي لم تكن تميل إلى حمل أعباء إدارة العزبة، أن تتخلص منها. فاشترتها عائلة تدعى «ليفروي» ولسبب ما لم تكشف عنه. السجلات، تركت عائلة ليفروي منزل العزبة في عهدة حارس لمدة خمس سنوات، ولم يدخلوا المنزل بأنفسهم حتى عام 1823.

وكانوا أول «غرباء» عن عائلات المالكين الأصليين، يشغلون منزل عزبة اتشيلز، لما يقارب الثلاثماية سنة. وربما أن واقع أنهم ليسوا من باتورست أو سلالتهم كان له تأثير على تجاربهم التي استمرت عبر قسم كبير من ذلك القرن. فحتى يوم شغلوا المنزل، لم يكن هناك أي ذكر على أن المنزل مسكون، الأمر الذي بدأ خلال شهرين من وجودهم هناك.

بين أفراد خدمهم كان هناك خادمة شابة تدعى مارغريت سمايلي. . . وكان أهل «ميغ» يعيشون في القرية. . . ووالدها وأشقاءها كانوا موظفين في الأملاك، كما كانت عائلة سمايلي لعدة أجيال. كانت صاحبة طبيعة مرحة، متزنة العقل، في الثامنة عشر، قوية الجسم وذكية. وكما قالت عنها السيدة ليفروي فيما بعد: «كانت لميغ سمايلي قدمان راسختان في الأرض، وآخر شخص يمكن أن يستسلم للأوهام».

ولتفاخرهم بأملاكهم الجديدة، كانت عائلة ليفروي، طبعاً، تواقين لأن

يظهروها على أصدقائهم وأقاربهم. وهكذا حوالي أسبوع الفصح عام 1823، حضروا احتفالاً منزلياً لدزينة من الضيوف، وهذا العدد يعني أن كل غرفة في المنزل ستشغل.

ومع أن الربيع كان قد حل بشمسه المشرقة وطقسه الجاف باكراً تلك السنة، إلا أنه كان خلال الليل يتبدل فتهبط الحرارة وتمر ليال عدة تتجمد فيها الأرض. والمنزل، بعد هجره الطويل، لم يكن قد أصبح دافئاً، وهكذا، لمنع ضيوفها من معاناة البرد، أعطت السيدة ليفروي أوامرها لإشعال النار في كل مدافئ المنزل إبتداء من الساعة الرابعة بعد الظهر.

وكان واجب الخادمات أن تغذين النار بالحطب قبل وقت قصير من خلود الضيوف إلى أسرتهم. وهكذا كن يبدأن جولتهن في الغرف ما بين العاشرة والنصف والحادية عشرة إلا ربع. وهكذا وصلت ميغ سمابلي إلى إحدى غرف النوم قبل الحادية عشرة بقليل.

وكانت النار تشتعل في المدفأة ببطء، وأدركت أنها لو وضعت فوقها الحطب في حالتها تلك، فسوف تنطفيء. وهكذا، ركعت أمام الموقد، ووضعت قطعة حطب وبدأت تنفخ فيها... وكانت تعبة وتتمنى أن تذهب إلى فراشها، ومع ذلك وهي تنفخ النار، أخذت تهمهم بلحن لنفسها.

وكوفئت على جهودها، فاشتعل الحطب وارتفعت السنة النار، وأخذت تحترق. وبحذر رتبت حول الحطبة قطع صغيرة من الحطب المتفحم، ونفخت فيها إلى أن اشتعلت.

وفيما هي تغطي الفحم المحترق، ببقايا الفحم الأخرى، سمعت بدء دقات. في البداية ظنت أن زميلتها جيس ريتشارد ترتب النار في مدفأة الغرفة تحتها... ولكن بعد أن تتابعت الدقات ثلاثة ثلاثة أربعة أربعة، ببطء وقياس واحد، ثم أسرع وأعلى، أدركت أن الدقات لم تكن صادرة من جيس، فما من أحد يمكن أن يدق على الحطب أو النار هكذا. إضافة

إلى أن الدقات بدت صادرة من مكان أقرب لها.

واحتارت، فأخذت تتفحص المدخنة الضخمة... غرفة واحدة أخرى في المنزل لها مدخنة مماثلة، الغرفة فوق... وهي تمعن النظر، بدأ دق جدي هذه المرة. ولم يعد لديها شك أن الدقات قادمة من الجهة اليسرى من المدفأة، فوق رأسها تماماً.

ومع أن ميغ كانت هادئة ورزينة، إلا إنها أحست بالدم يتجمد في عروقها، والبشرة تقشعر في قمة رأسها، والثلج يتكوّن فوق خديها وبدأت يداها ترتجف. وللحظات مريعة، تصورت أنها تسمرت في مكانها، وتمنت لو تتمكن من الوقوف، ومع ذلك فأطرافها لم تطع أوامر إرادتها.

وأصبح صوت تنفس شخص ما قربها قريب لها بحيث أنها ظنت للحظة قصيرة أنها أحست بنفخات هواء على مؤخرة عنقها... وأصبحت على شفير الذعر، أنقذها منه تعقلها وإدراكها أن ما تسمعه هو صوت تنفسها هي.

وقالت لنفسها بصوت مرتفع «فتاة سخيفة» وضحكت بخجل وتابعت: «تماسكي يا فتاة!».

وتنفست عميقاً لتهديء من ضربات قلبها المتسارعة، وبدأت تقف من جثوها على ركبتيها... وهي تقف هذا... علق كعب حذائها بطرف فستانها... ولكي تنقذ نفسها من الوقوع في النار وضعت يديها على المدخنة، وثبتت نفسها. ولكن بينما كانت يدها لا تزال مضغوطة على القرميد، بدأت الدقات ثابتة، وأحست بارتجاف القرميد تحت يدها.

وسحبت يدها وكأنها احترقت. وعاودها كل خوفها، والتقطت دلوها وبدأت الهرب من الغرفة. وقبل أن تصل إلى نصف المسافة من الباب، صاح بها صوت رجل من المدفأة: «أخرجوني من هنا! أخرجوني من هنا!».

وكان هذا كثير. . . وبصرخة. . . رمت السطل وقضيب النار وهربت من الغرفة، وجذبت الباب وراءها ليقفل بقوة، مما سبّب ازدياد خوفها. ومع أنها عادة كانت تستخدم السلم الخلفي، فإن السلم الرئيسي كان أقرب لها، ورمت بأوامر سيدتها في الريح، ونزلت السلم المغطى بالسجاد.

صوت وقوع الدلو وقضيب النار الحديدي، وصراخها، سمع في كل المنزل. وما إن وصلت إلى آخر درجات السلم حتى رأت أن كل الضيوف متجمعين خارج غرفة الاستقبال في الردهة، وأن بعض الخدم الآخرين قد انضموا اليهم.

منظر الوجوه المدهوشة، وصوت السيد ليفروي يناديها، يسألها عما يجري، أعاد لها شجاعتها قليلاً. ولكنها كانت تسند نفسها بقائمة السلم، وفجأة بدت وكأنها دُفعت جانباً بخشونة، فبدأت تتدحرج ما تبقى من الدرجات وسمعت صوتاً يقول: «أوه يا إلهي! أوه يا إلهي!».

وفي الوقت الذي سارع فيه جايمس ليفروي، أحد أبناء صاحب الدار، لمساعدتها، والتقطها بين ذراعيه، كانت مغمياً عليها كالميتة. وهو يحملها نحو غرفة الاستقبال، فتح الباب الأمامي بقوة، ودخلت نفخة ريح باردة، وبينما كان الضيوف المذهولين يلتفتون لرؤية ما حدث عاد الباب ليقفل بصوت مرتفع، وبنفس السرعة التي فتح فيها.

وهبط الصمت على المجموعة الساكتة، وأعلن جميع من كان هناك فيما بعد أنهم سمعوا صوت عربة تتحرك مغادرة المنزل عبر الممر. ومن الطبيعي أن يكون السيد ليفروي قد سمع، فقفز نحو الباب ليرى من هو. ولكن عندما حاول فتح الباب وجد أنه ثابت، وأن كل قواه لم تستطع تحريكه.

وعاد مسرعاً من الباب إلى غرفة الاستقبال، وسحب الستائر في إحدى

النوافذ حيث يستطيع رؤية الممر كله. . . في الخارج. . . وتحت ضوء القمر. . . لم تكن ورقة شجر أو عشب تتحرك، والممر فارغ تماماً.

وبحيرة عاد إلى الردهة، حيث كان جيفنز، الساقي، قد تقدم إلى الباب محاولاً فتحه. فقال له السيد ليفروي:

ـ إنه يحتاج إلى معدات. . . إنه ثابت تماماً.

ووافق جيفنز بهدوء:

ـ أجل يا سيدي. . . هل لي بكلمة معك على انفراد سيدي؟

وتحرك الساقي إلى قسم الخدم حيث تبعه السيد ليفروي، بحيرة أكبر، وعندما وصلا غرفة الساقي، أغلق جيفنز الباب ورائهما. . . فسأله السيد ليفروي:

ـ ما الأمر يا جيفنز؟

ـ ظننت أن من الأفضل عدم ذكر هذا أمام الضيوف سيدي. فهم قلقون بما يكفي. . . ولكن الباب ليس مثبتاً، بل أنه مقفول بالمفتاح.

ـ هل أنت متأكد جيفنز؟.

ـ تماماً يا سيدي.

ـ ولكن كيف يمكن هذا؟ هل اقترب أحد من الباب بعد أن عدت إلى غرفة الاستقبال؟.

ـ أبداً يا سيدي.

ـ ولكنني لم أقفله بالمفتاح يا جيفنز، أقسم.

ـ لا يا سيدي، لم يكن بإمكانك، فالمفتاح لا يزال معلقاً في مكانه على الحائط قرب الباب سيدي، حيث أضعه خلال النهار.

ـ هل أنت واثق تماماً أنك لست مخطئاً يا جيفنز؟.

ـ أنا متأكد تماماً سيدي.

وفتح درجاً وأخرج منه مفتاحاً كبيراً:

ـ هـذا هـو المفتـاح الإضـافي يـا سيـدي. . . إقتـرح أن آخـذ بعض المعدات وأتظـاهر بإنني أفتح الباب، وتحت غطاء عملي هل لك أن تضع المفتاح في القفل وتديره، وسترى إنني على حق.

وثبت أنه على حق.

وفي هـذا الوقت حملت ميغ إلى صوفا في غرفـة الاستقبال، وأعيـد إليها وعيها. في البداية لم تستطع أن تتكلم من البكاء. ومع أنها كانت لا تـزال ترتجف سـألتها السيـدة ليفروي إذا كـانت تستطيع الـوصـول إلى المكتبة. فهزت رأسها بالإيجاب، وأمسكت بها السيـدة لتساعـدها على الخروج من الغرفة. واعتذر ليفروي لضيوفه:

ـ أنا آسف، لا بد أن الفتاة خافت من شيء، ويجب أن نكتشف السبب. هل تعذرونا لتركنا لبضع دقائق؟.

من فوق تمتمات الموافقة، إرتفع صوت رجل يسأل:

ـ عربة من كانت يا توم؟

فرد ليفروي كاذباً:

ـ لم أستطع التعرف إليها.

وسأله آخر:

ـ هل أنت واثق أنك رأيت عربة يا توم؟

ـ لست واثقـاً، اعتقـدت هـذا. دعـونـا لا نخيف السيـدات أكثـر يـا سادة. . . أعذروني.

في الـوقت الذي وصـل فيه إلى المكتبـة كانت السيـدة ليفـروي قـد تمكنت من إقناع ميغ بـالكـلام. وبعد أن أنهت الفتاة قصتها قالت السيدة:

ـ سأطلب من السيدة سمارت أن تغلي لك بعض الزهور، وتأخذهـا إلى

سريرك وستنام جيسي معك وهكذا لن تكوني لوحدك. . . وإذا سألك أحد ماذا أفزعك قولي أنك اعتقدت أنك رأيتي جرذاً كبيراً.

بعد أن أخذ الساقي الفتاة إلى غرفتها، استدارت السيدة ليفـروي إلى زوجها وسألته:

ـ حسن يا توم ما رأيك فيما جرى؟.

ـ لست أدري يـا عـزيـزيتي. . . هـل سمعت من قبـل أن المنـزل مسكون؟.

ـ أبداً! لو كانت إحدى الفتيات الأخريات لقلت أنها كـانت تتخيل. ولكن ميغ لها قدمان ثابتان في الأرض. وآخر من قد يتأثر بالخيال.

ـ الجرذ كان فكرة عظيمة يا بث. . . سنقول للآخرين آن هذا ما حدث.

ومع أن الضيوف تظاهروا بالرضى لهذا التفسير، إلا أنهم، سراً، لم يقتنعوا، فهذا لم يـوضح لهم أصـوات العربـة، والتي قال الجميـع إنهم سمعوها. . . ولكن كي لا يجرحوا مضيفيهم، لم يشيروا للأمـر بعدهـا. ولكن لم يكن هناك واحد منهم آسفاً عندما انتهت زيارته.

تأثير ما حدث على ميغ كان أعمق أثراً مما ظنت السيدة ليفروي.

وفي الصبـاح التالي قـدمت الفتاة استقـالتها. وخـوفاً من تـأثير بقيـة الخدم بهذا، توسلت إليها السيدة وتملقتها إلى أن قالت لها ميغ أخيراً:

ـ حسن جداً سيدتي، سأبقى شرط أن لا أدخل تلك الغرفة ثانية.

ـ أعدك بهذا. . . ستغادرنا الآنسة نايتنغال اليوم، وسنقفل تلك الغرفة ولن نستخدمها ثانية.

وكما تبين فيما بعد، إغلاق الغرفة لم يأت تماماً بالنتيجة المرضية. فقد سمعت الدقات في أقسام أخرى من المنزل لعدة سنوات. . . وبسببها ترك العديد من الخدم الخدمة بسرعة. وبدا بعـد ذلك أن هـذا تبعه فتـرة من

الهدوء لشبح الكسندر باتورست، إذا لم يذكر أي تقرير عن ظهوره قبل سنة 1840.

ويبدو كذلك، أن تجربة ميغ لم تعد تذكر بعد عشرين سنة. ولم يكن ويليام ليفروي، الذي أصبح المحترم فيما بعد، في المنزل ساعة حدوث الظهور على ميغ، وإذا كان قد أبلغ بالأمر فقد نسي. لأنه عندما زاره الكابتن انستى، صديقه، وجد العائلة كلها متكدرة واستقبله صديقه ويليام قائلاً:

ـ أرجوا أن تكون مرتاحاً يا جون... ولكن الحقيقة هي أن لدينا شبح، ولم نستطع إقناع الخدم بالبقاء معنا... ولهذا، أرجوك، أن تتجاوز عن أي تقصير قد يبدو لك في ضيافتنا.

وأثار ذكر الشبح فضول الكابتن، وأصرّ على أن يخبره ويليام ليفروي قصته، ثم قال:

ـ أريد أن أسمعه، وأرجو أن تضعني في تلك الغرفة.

ـ بالطبع لن أفعل.

ـ ولكن أرجوك أن تفعل.

ـ لن يجبرني شيء على هذا يا جون، ولكنني سأوافق إذا كنا معاً، وعندها نستطيع معاً المراقبة ومحاولة معرفة ما يجري بالضبط، فللحقيقة، لم يسمعه أحد منا.

وهكذا، أخذ الرجلان يراقبان الغرفة... ولثلاثة ليال لم يحدث شيء. ولكن في الليلة الرابعة، حوالي الحادية عشرة ليلاً، بدأ الدق.

فقال أنستي بعد أن تفحصاالمدفأة:

ـ إنها تأتي من الغرفة التي في الأسفل، ولا بد أن هناك فراغاً يحمل الصوت إلينا.

وأصغيا لبعض الوقت، وعاد الدق. ببطء أحياناً وبقوة أحياناً أخرى. فقال أنستي:

ـ لننزل إلى الطابق الأرضي لنتفحص الغرفة. وإذا لم نجد شيئاً هناك... سأفترض على أن عصفوراً بنى عشه في المدخنة.

وبهذا القول نزلا إلى الطابق الأرضي... وما أن مد أنستي يده إلى مقبض الباب، حتى أجفل الرجلان على صوت يصيح:

ـ أخرجوني من هنا! أخرجوني من هنا!.

ومع أنه استدار حوله، فإن أنستي أبقى يده على المقبض، وهو يقف ناظراً بحيرة إلى صديقه أحس بنفسه مدفوعاً بخشونة إلى جانب، وبالباب يفتح بيد غير مرئية، ثم يقفل بطريقة قوية. فصاح:

ـ يا إله السماوات! ليست الطيور يا ويليام... منزلك مسكون!

فقال ليفروب بحدة:

ـ إسمع!

ومن الممر الخارجي للمنزل تحتهما، سمعا صوت عربة تندفع بعيداً... وركضا معاً إلى النافذة وفتحاها لينظرا إلى الخارج... ولكن الممر كان فارغاً...!

الروح التي فشلت في الانتقام

عندما تنتهي الحرب وتُكسب، تبدأ تصفية الحساب الحقيقي. وكانت ثورة «جاكوبيت» عام 1745 في اسكتلندا قد انتهت بفشل ذريع لقضية ستيوارت، وهرب الأمير تشارلي إلى فرنسا، تاركاً خلصائه من «الهايلانيدر» يعانون سيئات لا يمكن وصفها على يد المنتصرين الإنكليز، تحت قيادة زعيمهم السفاح «كامبرلاند». . . وكان القتل، والاغتصاب، وحرق المنازل هو أمره اليومي لرجاله، ولم يترك شيء لم يفعل لكسر روح العشائر الشجاعة المناضلة. ولم يعودوا قادرين على ارتداء ثيابهم التقليدية السكوتش، ولا حمل سيوفهم. . . بشكل رسمي. ولكن دم «الهايلاند» ثمين، وآوت القمم والجبال قدر ما استطاعت من الخارجين عن القانون المهزومين، بقدر ما فيها من أرانب وثعالب. وكل منهم يحمل إما سكيناً أو بندقية صدئة وكل منهم مليء بالحقد القلبي على «الساكسون» المنتصرين.

وهنا، قصة شخص إسمه دونالد بان وزوجته، زارهما في أحد الليالي

شبح، وأفزعهما بالطبع. ولكن المرأة حافظت على بعض هدوء النفس لتقول إلى الشبح بأن يجيب على سؤال واحد:

- هل سيعود أميرنا ثانية؟.

وأجاب الشبح بالأبيات الشعرية التالية:

هجرتني الرياح وتركتني عارياً
ورمت بقلنسوتي عن رأسي
ولكن، بقي شيء يختبيء في «الهايلاند» عالياً
إذا لم ترمي الريح سيفي من يدي!

ولكن شبح هذا الشاعر ليس بشبح قصتنا.

سنة 1749، بعد ثلاث سنوات من ثورة الأمير تشارلز ستيوارت. كانت الحكومة الإنكليزية لا تزال غير مرتاحة البال حول الأراضي الجبلية «الهايلاند» فقد بقي الشعور بأن هناك «شيء يختبيء في الهايلاند عالياً» قوياً في نفوسهم. وبقي جيش الاحتلال يراقب المنطقة بحدة، وكان مكروهاً كما هي عادة جيوش الاحتلال.

ولكن كان هناك استثناء في «الجيش الأحمر الرداء اللعين» هو السارجنت آرثر دايفز، من فرقة «ريدجمنت»، والذي نقلت خدمته صيف عام 1749 من «أدنبره» إلى «دوبراتش» في «برايمار» على بعد ثمانية أميال من أقرب نقطة حراسة في «غلينشي». ويمتد ما بين النقطتين. . . براري خالية وجبال وصخور ونهر. ولم يقلق السارجنت دايفز لهذا الاختلاف بين هذه البراري المتوحشة وريف بلدته اللطيف، وسرعان ما استقر. وأصبح مقبولاً بسرعة، فهو أحد الرجال ولدوا ليحبهم أمثالهم، طيب شريف، صادق، عادل في معاملته، وفي حياته الخاصة مخلص لزوجته الشابة ومولع بأطفاله، وهذا أمر مميز في بلد حيث حدثت المجزرة الثانية

للأبرياء لتوها. وشهدت زوجته فيما بعد قائلة «لقد عشت معه بتفاهم وحب بقدر ما يستطيعه زوجان. ولم يضطر مرة لأن يبتعد عني ليلة واحدة.

ولا بد أن السارجنت، وهو من عائلة ميسورة في إنكلترا، إضافة إلى مركزه، قد بدا لعيون أهل «الهايلاند» الجياع، ثرياً. كان يمتلك ساعة فضية، وخاتمان ذهبيان، أحدهما عليه فص غريب، ويرتدي «حلية فضية حول ركبتيه ولحذائه ابزيم من الفضة». وعلى معطفه النصفي من الأطلسي دزينتان من الأزرار الفضية، وكان معطفه أزرق براق، وقبعته محفور عليها حرفا إسمه الأول بالفضة. وشعره البني القاتم مربوط برباط فضي. وكان قد وفّر خمسة عشر جنيهاً ونصف، وهو مبلغ كبير تلك الأيام... وكان من عادته أن يحمل المبلغ في كيس مال من الحرير الأخضر ويظهره بكل براءة لمن يهتم به. وكان يحمل بندقية، وهي من الممتلكات التي تجلب الحسد في ذلك الجزء من البلاد. وهكذا كان السارجنت دايفز «رجلاً جميلاً» في كل تفاصيله، وكذلك قال من شاهده يغادر مسكنه في منزل ميتشال فاركوسون في بلدة «دوبراتش» يوم الثامن والعشرين من أيلول، في الصباح الباكر. حيث خرجت زوجته بثوب وقبعة النوم لتقبله مودعة عند الباب... فهل بقيت ذراعاها حوله أكثر من المعتاد؟ أم إنها راقبته يبتعد، بشعور قلق بأن هذه هي بداية رحلة طويلة؟ على الأرجح... لا... فهي إمرأة إنكليزية، وليست فتاة جبلية من «الهايلاند» ذات «رؤيا بعيدة»:

ـ مع السلامة آرثر، إعتن بنفسك جيداً.

وكان هذا أكثر شيء قد تقوله قبل أن تقفل الباب وتبدأ عملها المنزلي. وجمع السارجنت دايفز أربعة رجال، وتوجه نحو «غلينشي» ليلتقي الدورية الآتية من هناك. وفي الطريق التقى برجل إسمه، «جون غروار» ولاحظ أن «غروار» يرتدي معطف الزي الاسكتلندي «الشارثان» وهو أمر حرّمه القانون. وبدل أن يعتقله، كما قد يفعل معظم الضباط الإنكليز، نصحه

بكل لطف أن يخلعه... وكان دايفز ساعتها لوحده، بعد أن ترك الرجال الأربعة وراءه، ظاناً أنه قادر على قطع التلة ومحاولة الحصول على أحد الأيائل، فهو يحب رياضة الصيد. ووعدهم بالعودة إليهم فيما بعد وهم في طريقهم للقاء الدورية.

ولكنهم عندما التقوا بالدورية، لم يكن السارجنت دايفز معهم. واستمهلوه ساعة أو ساعتين، ثم عادوا للتفتيش عنه. ونادوه، وصاحوا، دون سماع رد، ما عدا صوت طيور البر المفزوعة. وكانت شمس الصيف المتأخرة حامية فوق رؤوسهم، وما أن حلت نهاية النهار حتى توقفوا عن البحث، مرهقين.

ولثلاثة أيام إعتقد الجميع أن السارجنت دايفز سيعود لوحده، وفي اليوم الرابع حضرت فرقة من الجنود من القوة المتحدة ما بين «دوبرتش» و«غلينشي» وبدأت عملية بحث مكثفة عنه. ولكنهم لم يجدوا له أي أثر. فقد اختفى السارجنت دايفز وكأنما خطفه الجن. وآمن بعض البسطاء بأن هذا ما حدث، ولكن الآخرين كان لديهم أفكار قاتمة أكثر.

ومرت الأسابيع، ثم الشهور... وحل شهر حزيران عام 1750 وسكن في الغرف التي كان يسكنها السارجنت دايفز بديله... وكانت المسكينة السيدة دايفز قد عادت إلى موطنها في إنكلترا، بعد انتظارها أشهراً عدة في اسكتلندا عودة زوجها المفقود، وفقدت الأمل. وكان إبن ميتشال فاركارسون في المنزل عندما وصل الخادم ليقول له أن هناك زائر يسأل عن والده إسمه الكسندر ماكفرسون. وبسبب غياب والده في عمل، عرض دونالد أن يرى الرجل بنفسه.

الكسندر ماكفرسون، كان رجلاً متوسط العمر، حافظ على ابتعاده عن المشاكل مع الإنكليز، ويعيش حياة متواضعة وبسلام في كوخ للرعيان بين التلال. وكانت القصة التي رواها غريبة. لقد كان، كما قال، يتلقى زيارة

خلال الليل من شبح السارجنت دايفز، وهو في نفس هيئته عندما كان حياً ولكن، يعلو وجهه تعبير قلق. وتوسل الشبح لماكفرسون أن يخرج للبحث عن عظامه، التي كانت مرمية في مستنقع فحمي، على بعد نصف ميل من الطريق التي تمر بها الدوريات. ورفض ماكفرسون الخائف أن يفعل هذا. ولكن الشبح أخذ يردد مرات ومرات «أدفن عظامي! أدفن عظامي!» فرد ماكفرسون: «لن أفعل، فأنا خائف» فقال الشبح «إذن أحضر شخصاً قد يفعل... إذهب إلى ميتشال ودونالد فاركارسون في مسكني القديم، واطلب منهما دفن عظامي... دفن عظامي!...».

واستمع دونالد فاركارسون لهذه القصة وهو غير مصدق... فقد كان شخصاً راجح العقل، ولطالما سمع العديد من الروايات المجنونة من أترابه الجبليين «الهايلاندر» وبصراحة، لم يصدق قصة ماكفارسون وقال له هذا، متوسل إليه ماكفارسون:

- ولكن... على الأقل تعال معي لنرى ما إذا كانت العظام هناك! لو إنك شاهدت وسمعت الشبح لصدقت ما أقول!

وأخيراً نجح إصراره مع فاركارسون، ووافق على الذهاب معه. وفي الصباح التالي توجها إلى المكان المقصود، وخلال ساعة وصلا إلى النقطة التي وصفها الشبح. وكانا قد أحضرا المجارف معهما، وبدءا باستخدامها. وبمكان ليس ببعيد عن السطح، وجدا قطعة قماش أزرق، فحفرا أعمق إلى أن كشف المستنقع المتفحم عما أخبر به الشبح... عظام السارجنت دايفز المسكين... الشعر البني لا يزال عالقاً في الجمجمة، ولكن الرباط الفضي اختفى، والمعطف النصفي الحريري الموشى بالفضة سليم تقريباً، ولكن دون أزرار الفضة. كذلك اختفت الحلية التي كان يضعها على ركبته، والحذاء من قدميه. ومزّق القتلة الأحرف الفضية من القبعة ورموها قربه وبدت أحرف أ. د واضحة مكان الفضة على القبعة المهترئة.

وهكذا حفر فاركارسون وماكفرسون قبراً لائقاً بعيداً عن المستنقع المتفحم ووضعا العظام المسكينة فيه بعد أن تليا صلاة الموت عليه، فكلاهما رجل متديّن. وجمعا الخرق والملابس وأخذاها معهما إلى «دوبراتش» كدليل على الجريمة.

وعقدت محاكمة، واستدعي الكسندر ماكفرسون لتقديم الدليل. شهادته اختلفت كلياً عما رواه لدونالد ماركارسون... وحسب قوله الآن، إن طيف رجل في ثياب زرقاء زاره في منتصف شهر أيار وقال له: أنا السارجنت دايفز!» في البداية ظن أن الطيف كان رجلاً حقيقياً حياً... وإنه شقيق لدونالد فاركارسون. فوقف ولحق بالطيف إلى الباب حيث قال له أن عظامه مرمية في مكان أشار إلى اتجاهه، وقال أنه يتمنى أن يدفن دفناً لائقاً، وأن دونالد فاركارسون سيساعده على هذا. وفي اليوم التالي خرج ماكفرسون ووجد العظام، بعدها أعاد طمرها حيث هي... وفي طريق عودته إلى كوخه التقى «غروار» الرجل الذي يرتدي معطف «الثارثار» والذي قابله دايفز في آخر يوم له على وجه الأرض... وقال له «غروار» إنه إذا لم يصمت حول ما اكتشفه، فسوف يقوم بنفسه باتهامه أمام القاضي «دالواني» لذا اتجه ماكفرسون إلى الطريق الحكيم وذهب إلى القاضي بنفسه وأخبره القصة، فقال له أن يلتزم الصمت حول القصة كلها، كي لا يعطي المنطقة إسماً سيئاً بإيواء المتمردين. وعاد ماكفارسون إلى منزله مشوش الفكر، وتلك الليلة ظهر له الشبح ثانية، وأنّبه وأمره ثانية أن يحضر دونالد فاركارسون ليدفنا عظامه... وكشف كذلك... وهذا أمر أثار ضجة في المحكمة... عن اسمين لرجلين قتلاه هما، دونكان كليرك، والكسندر باين ماكدونالد.

وعند هذه النقطة قاطعة القاضي ليسأله بأية لغة خاطبة الشبح فأجاب ماكفارسون:

- في لغة «الغال».

وسجل القاضي الرد.

ثم، أتت قطعة دليل خارقة للطبيعة من السيدة إيزوبيل ماكهاردي، والتي كان يعمل ماكفارسون لديها كراع للخراف.

قالت: في أحد ليالي حزيران 1750، كانت نائمة في «الشيلنغ» وهو كوخ للرعبان، بينما كان ماكفارسون ينام في الجهة البعيدة من الكوخ. وكانا يتبادلان حراسة الخراف. . . . بينما هي مستلقية مستيقظة في فراشها «شاهدت طيفاً عارياً يقف بالباب، مما أفزعها جداً ورفعت الغطاء فوق رأسها. . . وعندما ظهر تماماً تقدم إلى الداخل في وضع منحن. وفي اليوم التالي سألت ماكفارسون عما حدث في الليل فقال لها أن تطمئن، فلن يزعجها الطيف ثانية».

ومع ما قد تبدو الشهادة لا تصدق إلا إنه لم يعاد استجواب الرجلين كليرك وماكدونالد، وعلقت القضية برمتها. . . ثم، بعد ذلك بثلاث سنوات، في أيلول 1753، اعتقلا فجأة، بتهمة التصرفات الثورية مثل ارتداء التنورة الاسكتلندية المحرمة! وسجنا في سجن «تولبوث» في أدنبره إلى حزيران عام 1954 ثم حوكما. وخلال المحاكمة تُبين أن زوجة كليرك كانت ترتدي خاتم السارجنت دايفز. الذي له فص غريب. . . وأن كليرك بعد الجريمة أصبح ميسوراً فجأة واشترى لنفسه مزرعة. وتقدم الشهود ليقسموا، أن كليرك وماكدونالد، كانا في التلال المجاورة. . . مسلحين. . . يوم الجريمة في أيلول 1749. . . وأقسم أنغوس كايرون، أنه رأى كيفية ارتكاب الجريمة بينما كان هو واحد أفراد أسرته، وقد مات حتى ذلك الوقت، فاختبئا في فجوة جبلية طوال النهار، ينتظران دونالد كاميرون، الذي شنق فيما بعد مع بعض رفاقه من قرية «لوتشاير»، بتهمة تدبير مؤامرة «جاكوبيه» أي ثورية ضد الإنكليز. وهكذا راقبا كلير

وماكدونالد يضربان ثم يطلقان النار على رجل بمعطف أزرق، وقبعة مزركشة بالفضة، ثم يهربان.

وأثّر هذا الدليل بالمحكمة كثيراً. ولكن بعد 142 سنة من ذلك التاريخ، تم تأكيد الشهادة هذه، بقصة أخبرتهما سيدة عجوز تتحدر من أصل أحد شهود تلك المحاكمة. إذ قالت أن سَلَفها كان يصطاد في 28 أيلول 1749، بالبندقية وكلب الصيد، حين شاهد كليرك وماكدونالد في الجبل. وظناً منه إنهما حصلا على غزال، تقدم منهما، وكلبه يركض أمامه، وهو يقترب شاهد ما حصلا عليه. فنادى الكلب، وبدأ يركض مبتعداً. ولكنهما أطلقا النار عليه وجرحا الكلب، فهرب مسرعاً إلى المنزل.

وما بين القصة التي رويت عام 1754 وتلك عام 1896، يتأكد أن كليرك وماكدونالد كانا مذنبين.

حتى أن محاميهما كان مقتنعاً بأنهما مذنبين.

ومع ذلك فعندما لفظت لجنة المحكمة في أدنبرة الحكم، كان «غير مذنب» وعذرها في ذلك أن الشبح تحدث إلى الكسندر ماكفارسون بلغة «الغال». . . وهي لغة لم يكن يعرفها في حياته.

وهكذا قام المنكود الحظ، السارجنت دايفز برحلته الشاقة عبر أبواب الموت إلى الدنيا ليرجوا دفنه دفناً دينياً لائقاً، برحلته تلك دون جدوى، فعظامه لم تدخل فناء كنيسة قط، وقاتلاه كليرك وماكدونالد لم يجرّما. بل عاشا في بحبوحة، في تلك الأيام، على حساب جنيهات السارجنت، وساعته، وخاتماه، والأزرار الفضية التي قتلاه لأجلها.

ولن يكون من العجيب أن تستمر روحه المرتديه المعطف الأزرق، في سكن تلال «برايمر» حتى يومنا هذا.

شبح الحارسة

عام 1850 كان يعيش في قرية «رينغستد» في «نور هامتون شاير» جزار باسم غريب هو «ويكلي بال». كان في أواخر الأربعين من عمره، متزوج وله عدة أولاد، عريض المنكبين، غليظ البنية، ذا طباع لسكير مزمن، مشوه بكرش بدائي، حتى أن منظره غير جذاب، أضف إلى ذلك أنه معروف بطبعه السيء، وهو آخر شخص قد تخاطر فتاة معه بسمعتها.

ولكن تكوين الأنثى النفسي يزودنا على الدوام بمفاجئات وحتى بعض الصدمات، وكان هناك فتاة على الأقل وفرت الاثنين معاً لسكان «رينغستد»... ربما لو أن والدها لا يزال حياً لأجبرها على التعقل أو ضغط عليها بسلطته الأبوية للتوقف عن غيها في الانجذاب لذلك الجزار، مع أن هذا أمر مثير لنقاش، فشخصيتها ورثتها عن أبيها بينما أمها إمرأة باهتة الشخصية، ومنعزلة، إنتهى أمرها قبل الأوان بسبب ضغط مطالب زوجها الراحل والخجل من خياناته الزوجية والحادة. ولم يكن لها لا الشخصية ولا الشجاعة على ردعه، وهي أخلاق أورثتها لابنته.

ومن ناحية أخرى، من غير العدل إيقاع اللوم الكبير على السيدة «آتلي»

بسبب غراميات إبنتها غير العادية، فليديا آتلي كانت في خدمة القصر، عندما اعتدي ويكلي بال على مشاعرها، وكانت عضواً من جهاز خدم مالك القصر لستة سنوات. وفي سن الثامنة عشرة ترقت من خادمة لكافة الأعمال إلى مساعدة خادمة غرف. وشاركت غرفة مع خادمة غرف أخرى، وبما أن مهماتها كانت تبقيها دائماً مشغولة من الخامسة والنصف صباحاً حتى ما بعد العشاء ما عدا بعد ظهر يوم واحد في الأسبوع، ويوم أحد كل ثلاثة أسابيع. فقد كان لها فرص قليلة لزيارة أمها. لذلك لم تكن السيدة آتلي في مركز يسمح لها بالتأثير كثيراً على تطور إبنتها نحو النضوج، حتى ولو كان لها أي ميل بهذا الاتجاه.

وكانت ليديا فتاة جميلة، شعرها أسود كجناح غراب، كان في أغلب الأحيان، وعندما يلتقط الضوء، يشع بلمعان أخضر غني. وجهها بيضاوي، جسمها بارز بروعه، بفكين بارزين وذقن مستدق. وبقلنسوة الرهبان، وطلعة مكتئبة، كانت تعطي الانطباع بالتنسك الحقيقي. وهو تأثير ينصرف على الفور عندما ترفع رأسها لتكشف عن فم مليء شهي، وعينان سوداوان كبيرتان تبتسمان حتى عندما لا تكون صاحبتها تمزح. أما ما تبقى منها، فقد كان واضحاً جداً، فعلى الرغم من القماش الممتليء المطبع ومئزرها المنشاة، فقد كان صدرها قوي وناتيء وأطراف خصرها مستديرة ولينة.

لم تكن قد بلغت الثامنة عشرة عندما وقع نظر ويكلي بال عليها أول مرة. وكان هذا صدفة. أحد موزعيه كان مريضاً وتأخر الآخر بسبب حادث لمركبته، وبلغت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما أدرك أن قطعة لحم الغنم لعشاء صاحب القصر لا زالت معلقة في محله.

ودعا زوجته المطيعة المهملة لتنتبه للمحل، وأسرج فرسته ولف قطعة اللحم بالقماش ووضعها أمامه، وقاد مطيته إلى القصر. وكانت هذه أول

زيارة له إلى القصر منذ عدة سنوات. فالطلبات كانت تعطي إما للموزع أو بواسطة خادم له عمل في القرية. وعادة عند أول كل شهر كانت الليدي صاحبة القصر تذهب إليه في عربتها، فيخرج إليها والفاتورة في يده فتتفحصها، ودائماً ترضى بها، فهو لا يملك عقلاً لجمع الأرقام، والسيد كريم، وتقول لمرافقها أن يعطي ويكلي بال المبلغ في يده. ومن حسن حظه أنه لم يحاول مرة أن يتلاعب بفاتورة القصر، مع أنه كان قادراً على هذا.

ونزل عند باب المطبخ، وقرع الباب... وظهر وجه السيدة نويل الطباخة من النافذة. وسمع ندائها بصعوبة عبر الزجاج «أدخل سيد بال».

وكان للمطبخ غرفة كبيرة وواسعة، وعند منتصفه تقف طاولة بيضاء وعلى طول أحد الجدران تمتد خزانة مطبخ مليئة بالصحون والقوالب والمقالي وأدوات الطبخ. وكل الجدار المقابل مشغول بموقد المطبخ. بأفرانه على كلا الجانبين.

على أحد نصفي الطاولة وفي صوان رقيقة، يتدكس الكعك المستدير الطازج والبسكويت وكانت لا تزال تعبق بالدخان من الحرارة، رائحتها تملأ المطبخ برائحة ذكية. وقالت له الطباخة:

ـ لقد بدأت أقلق سيد بال لقد ظننت المستحيل حصل في النهاية ونسيت إرسال اللحم... لقد وصلت على الوقت المحدد تماماً أتعلم هذا؟.

وشرح الجزار السبب، وهويعتذر، لتأخر التوصيل ولكن بينما كان يخاطب الطباخة فإن نظره كان مشغولاً بواحدة من الفتاتين اللتين كانتا تنظفان فضية المائدة، وكانتا هناك بإذن من الطباخة لاحتجاجهما إنهما لم تستطيعا القيام بعملهما في غرفة الأدوات المنزلية، والتي دون مدفأة، باردة في هذا الطقس. وقالت الطباخة:

ـ حسن.. لم يحدث ضرر وقد أتيت أخيراً. هل لك بكوب شراب ساخن

سيد بال؟.

ـ هذا لطف منك سيدة نويل أشكرك عليه.

ـ سيبعد عنك البرد سيد بال. لقد مضى زمن طويل منذ كان الطقس بارداً لهذه الدرجة في تشرين الأول (أوكتوبر)... ليديا ضعي الإبريق فوق الجمر، إنك فتاة طيبة.

وتركت الفتاة التي اجتذبت اهتمام الجزار الطاولة، وتقدمت نحو الفرن، حركاتها مثيرة مغناج وماكرة، على الأقل لرجل حساس مثل بال وأحضرت الطباخة كوب الشاي، فتقدم بال من الموقد بادعاء تدفئه نفسه وقال بصوت منخفض للفتاة:

ـ لا أظن إنني رأيتك من قبل... هلى أنت من قرية قريبة؟.

ـ أجل سيد بال... أنا إبنة توم آتلي.

ـ إذاً أنا أعرف أمك. أنها زبونة عندي.

ـ إذا كان صرف بضع قروش في الأسبوع. يجعلها زبونة، فاعتقد أنها هكذا.

ـ كيف لم أرك في القرية من قبل؟.

ـ لأنني لا أذهب إلى هناك كثيراً... ووالدتي تعيش في هذا القاطع، وليس لدي وقت فراغ.

ـ متى تحصلين على وقت فراغ؟.

ـ بعد ظهر يوم واحد في الأسبوع... يوم الأربعاء عادة.

ـ إذن ستأخذين فرصتك غداً... وأنا أنوي لملمة التفاح من بستاني قبل أن يتلفه الصقيع. أنت تعرفين البستان، ولو توقفت عندي سأعطيك سلة مليئة لأمك.

ونظرت الفتاة في عينيه رأساً، وعيناها تلمعان بالتسلية والإثارة، وسمعت صوت أقدام السيدة نويل تقطع الممر فهمس بال بإصرار:

ـ هل ستأتين؟ .

فرفعت رأسها قليلاً وابتسمت ثم قالت:

ـ أنت تعمل بسرعة سيد بال. . . أجل. . . سأحضر! .

وصاحت زميلتها عن الطاولة «ليديا!» ولكنها لم تتابع كلامها فقد وصلت السيدة نويل إلى المطبخ. وقالت:

ـ آسفة لأن أدعك منتظراً سيد بال. . . هل انتهى الشاي.

ـ لا تتعبين نفسك سيدة نويل.

وذهبت إلى خزانة الصيني لتحضر فنجاناً وصحناً وقالت:

ـ هل الشاي جاهز يا ليديا.

وأخرجت الفتاة الإبريق من النار، وقالت:

ـ سيكون هذا الشاي أطيب مذاقاً مما تعرفينه سيدة نويل.

ونظرت إلى بال مبتسمة:

ـ أحضريه إلى هنا بسرعة هيا يا فتاة قبل أن يبرد. وصبي للسيد بال.

وبحركة ثابتة غير عجولة، تبعت الفتاة تعليمات الطباخة. . . وأخذ الجزار يراقب كل حركاتها وأحس بالتوتر يتصاعد في داخله.

ومرت بالقرب منه حتى أنه اشتم رائحة جسدها وأعادت الإبريق فوق النار. وقالت الطباخة:

ـ هاك إذاً سيد بال. الشاي الساخن يخرج الرطوبة من الأجسام.

وتناول بال الفنجان، وبانحناءة شكر قال:

ـ نخب صحتك الطيبة سيدة نويل. . . سيدتي. . . ! .

وارتشف القليل ثم لعق شفتيه، فابتسمت الطباخة بسعادة:

ـ شكراً لك سيد بال. . . من دواعي سروري.

وأخذ بال يرشف من فنجانه، ومع أنه كان يتحدث للطباخة، إلا أن عيناه كانتا على الفتاة التي عادت إلى عملها. . . ومن وقت لآخر كانت ترفع نظرها لتحدق به، وعيناها تلمعان، وابتسامة خفيفة تتراقص فوق شفتيها.

وعندما لم يعد يستطيع إطالة بقاءه بشكل معقول. . . غادر المنزل.

بعد وقت قصير من مغادرته، صعدت الفتاتان، بعد انتهاء عملهما، إلى الغرفة التي تتشاركان بها فوق المنزل. وهما صاعدتان لم تتكلما، ولكن ما أن أصبحتا في غرفتهما حتى قالت الصغرى منفجرة:

ـ ليديا، أنت لست جادة في الذهاب إلى بستان بال العجوز، أليس كذلك؟ .

ـ بالطبع أنا جادة، ولماذا لا؟ فوالدتي قد يسرها الحصول على بعض التفاح.

ـ ولكنه سيعطيك أكثر من التفاح، إذا لم تنتبهي لنفسك، فوالدي يقول أنه. . . فا. . . فاسق مثل الكبش الشاب.

وتظاهرت ليديا بالرعب الماكر وصاحت:

ـ بيتسي! كيف تمكنت من لفظ مثل هذا الأمر. . . فتاة في مثل سنك! .

ـ أنا تقريباً في نفس سنك ليديا. وعندما يكون لديك ستة أخوة كما عندي، فستكوني حمقاء إذا لم تعرفي هذه الأمور. ثم لا تغيري الموضوع، عديني أن لا تذهبي.

ـ لن أعدك بمثل هذا قطعاً! .

ـ إذن دعيني أذهب معك.

ـ كيف يمكنك هذا وفرصتك يوم الخميس؟ .

ـ سأتسلل معك.

- ويلقى القبض عليك وتخسرين عملك!

وطوحت ليديا بساقيها عن السرير، ووقفت لتبدأ بفك أزرار ثوبها، وتابعت:

- لا تقلقي علي، عزيزتي بيتسي... أستطيع العناية بنفسي.

- سوف يفتضح أمرك، كما ظننت أن بن ريدجواي قد فضح أمرك منذ شهرين.

- لقد تعلمت بعض الأمور من تلك التجربة.

- هكذا تظنين! أضيفي إلى هذا، كيف يمكنك التفكير بأن تسمحي لرجل مثل ويكلي بال أن يضع إصبعه عليك؟.

- إنه ليس بالعجوز... ليس لهذه الدرجة.

وتغير صوت ليديا، وبدت وكأنها تسرّ لنفسها:

- أعلم أنه ليس وسيماً... ولكن هناك شيء فيه... هكذا... وهكذا... أعتقد.

ووقفت، وأكملت فك أزرار ثوبها وتركته يهبط عند قدميها وتابعت:

- على كل الأحوال... لقد سئمت من تضييع وقتي مع الأولاد المرتبكين اللذين لا يعرفون ماذا تريد الفتاة. ويكلي بال يعرف. ولن أكون مقيدة.

- أرجوك ليديا، لآخر مرة!.

- آسفة بيتسي يا عزيزتي، لو أنك مخلوقة مثلي، لعرفت ما بي.

وهكذا التقت ليديا آتلي بويكلي بال في بستانه بعد ظهر اليوم التالي... وكان هذا أول لقاء من العديد، ليس فقط بعد ظهر أيام الأربعاء، بل في أمسيات الشتاء المعتمة وأمسيات الصيف المشرقة. ومن وقت لآخر كانت بيتسي تحاول أن تعترض، ولكن دون جدوى، وبعد ذلك انغمست في علاقة لها مع آخر صديق لليديا، بن ريدجواي إبن

رئيس الحوذيين، البالغ التاسعة عشرة من عمره.

ولكن، أتى يوم لاحظت فيه بيتسي أن تغييراً ما طرأ على صديقتها. فلم تعد تتبادل الحديث معها، ولا تبتسم أو تمزح، بل كانت تقوم بعملها بنوع من الذهول الأوتوماتيكي.

ولم تقل لها بيتسي شيئاً، مع أنها واثقة بأنها تعرف السبب لهذا التغيير. ولم ترغب في توبيخ صديقتها، بل أنها كانت تشعر بالشفقة عليها... فلو أن نفس الشيء أصابها، فعلى الأقل بإمكان بن ريدجواي أن يتزوجها... مع أن هذا من غير المحتمل أن يحدث... لأنها تبقى بن على مسافة معينة منها... فمن الأفضل أن تبقيه متعلقاً بها... ولكن ويكلي بال متزوج وامرأته قذرة وله سبعة أولاد، وقريباً سيصبحون ثمانية. وهكذا أبقت مشورتها لنفسها، وهي تعلم أن ليديا تريد أن تخبرها مايجول بفكرها ولكن في الوقت المناسب.

وهكذا حصل ما توقعته بعد ليلة أو ليلتين، فقد ذهبت بيتسي إلى غرفتهما لتجد ليديا في الفراش تبكي من كل قلبها. فحاولت التخفيف عنها مترددة في أن تكشف أنها تعلم ما السبب. وأخيراً، وبعد أن ازداد نحيب ليديا كلما ازدادت مواساة بيتسي لها، انفجرت بيتسي قائلة:

- أنت في طريقك لتكوّني عائلة، أليس كذلك؟.

فتوقفت ليديا فوراً عن النحيب، وصاحت:

- وكيف عرفت؟.

فابتسمت بيتسي:

- لقد خمّنت. ليس الأمر صعباً. فهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يخفّف من روحك المعنوية.

- لقد وعدني أن لا يحدث هذا... قال إنه سيكون حذراً. ولكن هذا حدث، بيتسي. وما من شك فيه!

ـ هل أخبرته؟.

ـ لا.

ـ ولكن لماذا؟ أعلم أنه لا يقدر أن يتزوجك، ولكنه غني وبإمكانه مساعدتك.

ـ لن يعجبه الأمر. . . ولا قليلاً. أنه شرير وأناني. . . ومنذ أخذ يرتاد الكنيسة أصبح خائفاً أن يكتشف أمره أحد، حولنا أعني.

ـ حسن إذن، لست أدري لماذا أنت قلقة، قولي له إذا رفض مساعدتك إنك ستبلغين الكاهن. وسوف يجبره الكاهن على العناية بك، عديني أن تقولي له. حتى ولو رفض مساعدتك ولم تبلغي الكاهن، فلن يكون حالك أسوأ من كتمان الأمر لنفسك. على كل لن تتمكني من كتمان الأمر طويلاً، وما أن يظهر بطنك لن تبقيك السيدة في الخدمة. لذا عديني، الآن.

ـ أنت محقة بيتسي يا عزيزتي. متعقلة كما دوماً. أعدك.

في الأمسية التالية، كانت بيتسي في سريرها والشمعة مضاءة، تنتظر عودة صديقتها، ودخلت ليديا بهدوء. . . واستطاعت أن تلاحظ على الفور أنها وفت بوعدها. فسألتها:

ـ ماذا قال؟.

ـ لم يعجبه الأمر، ولكنه وعد أن يعطيني بعض المال لأستطيع الهرب بعيداً. لقد خططنا لكل شيء. . . سوف أستقيل في الغد وفي الأسبوع القادم سيعطيني المال.

ـ وبماذا ستعتذرين لاستقالتك ليديا؟.

ـ بحاجتي للسهر على عمتي المريضة في «نورثمبتون» سأذهب إلى هناك وأستأجر غرفة، وسيأتي لزيارتي. لديه صديق، جزار هناك سوف يعطيني وظيفة بعد ولادة الطفل.

وهكذا أعطت ليديا إنذار أسبوع باستقالتها، في الليلة التي تلت تركها العمل ذهبت إلى موعدها مع ويكلي بال في مكان لقائهما المعهود. . . كوخ في بستان الجزار.

وحدث أن أحد القرويين، روبرت هيكنز، كان يختصر الطريق عبر ممر قصير يمر قرب البستان. . . ولقد قال فيما بعد، أنه عندما كان ماراً قرب الكوخ سمع صوت إمرأة تعرف عليه على أنه صوت ليديا آتلي تقول:

ـ لا أعتقد أنك ستعطيني المال بالمرة. لدي شعور أنك تنوي قتلي يا ويكلي بال.

وعندما قيل له، بعد أن اختفت ليديا آتلي من القرية، لماذا لم يقل شيئاً، تمتم هيكنز محرجاً ليقول أنه كان دائماً صاحب رأى يقول بعدم التدخل في شؤون الآخرين.

بعد تلك الليلة لم تعد ليديا آتلي ترى حية. وعندما سألت أمها أين هي ابنتها، أجابت أن ليديا غادرت المنزل تلك الليلة، وقد وضعت أشياءها القليلة في سلة، وقالت إنها مسافرة إلى «نورثمبتون» فقد سئمت حياة الريف وتريد العيش في المدينة. وبما أن هذا القول جاء من أمها، فقد تقبله الجميع كتفسير لاختفاء ليديا من القرية.

وكان يمكن أن يبتعد الأمر عن الأذهان، لولا أن بيتسي، وفي الربيع الذي تلاه سمحت لنفسها أن تذهب مع بن ريدجواي، إلى مكان منعزل قرب بستان الجزار. هناك، وبعد برهة، بدا بن بالضغط بمطالبه، ولكن كالعادة، وعندما أصبح الأمر جدياً، من وجهة نظربيتسي، قالت له أنها ليست مستعدة لأن تعطيه المزيد قبل أن يتزوجا. . . فصاح بن:

ـ ولكننا سنتزوج في حزيران! ولا يبعد هذا سوى شهرين، فلماذا نعذب أنفسنا بالانتظار؟

وردت بيتسي بحزم:

ـ قد يحدث شيء.

فقال الشاب:

ـ ولكننا سنكون متزوجان عندما يظهر الأمر. لنفترض إنني قلت أن ليس بمقدوري الانتظار؟ فليست الطيور والخراف والماشية والثعالب من تشعر وحدها بالرغبة في الحياة أيام الربيع يا بيتسي!

ـ لقد بدأت أحس بهذا!

وغير بن من طريقة تقدمه، وقال بنعومة وهو يملس شعرها:

ـ أنظري يا حبيبتي عندما كنت تقولين «لا» من قبل كنت أتوقف دائماً أليس كذلك؟ ولكن ما كنت مضطراً، فأنا أقوى منك، فلماذا تظنين إنني كنت أتوقف؟ لقد فعلت ذلك لأظهر لك مدى حبي لك.

ـ أعرف هذا يا بن.

ـ أتظنين إنني كنت سأطلب منك لولا حبي؟.

فتنهدت بيتسي، وعندما لم ترد، زاد مغازلاته، يتوسل إليها همساً مما جعله يبدو وكأنه يتأوه من الألم. وفجأة أحست بيتسي بأنها تعاني أيضاً. وأن دفاعاتها أخذت تضعف ووجدت نفسها تقول لنفسها: لم يعد الأمر يهم الآن، كما يقول، إنه يحبني، وأنا أحبه... وسنتزوج في حزيران... ثم لم يعد لها أية قوة ولا رغبة لمقاومته، وعلم أنها توقفت عن المقاومة.

كل شوق الأسابيع المحبوس بدت وكأنها تتفجر من ضفتي احترامه لطهارة تلك الفتاة التي كانت تلف ذراعاها حول عنقه، والتي كانت أنفاسها تحرق وجهه في موجات مشجعة.

وفجأة، انقطعت حماسته في منتصف الطريق. وساورته الدهشة من قوة ردة فعل بيتسى غير المتوقعة، فقد شاهدها تجلس، وسمعها تصرخ:

«ليديا! ليديا!» ثم قفزت على قدميها وبدأت تركض في الطريق وهي لا تزال تنادي باسم صديقتها.

ووقف على قدميه، مذهولاً، وبدأ الركض خلفها، ولكن قبل أن يصل إليها توقفت، وأخذت تنظر حولها وكأنها تفتش عن شيء أو عن أحد. ثم استدارت وركضت نحوه، وعندما رمت بنفسها بين ذراعيه، وجد أنها ترتعد من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. فسألها:

ـ ماذا حدث يا فتاتي؟.

فقالت الفتاة باكية:

ـ لقد رأيتها! لقد رأيتها يا بن! ليديا آتلي! كانت تنظر إلي وتهز باصبعها وكأنها تحذرني. وعندما جلست، استدارت وبدأت تسير عبر الممر. ثم وبعد أن بدا لي أنني وصلت إليها، اختفت. أين ذهبت؟

وحاول الشاب تهدئتها:

ـ لقد كنت تتخيلين الأشياء يا حبيبتي؟ لم أشاهد شيئاً!

ـ ولكنني رأيتها! أقول لك إنني رأيتها! كانت تحذرني بأنني أفعل سيئاً.

ـ لو كانت تسير عبر الممر لرأيتها. وأقول لك أنه لم يكن هناك أحد. إضافة إلى أنها لو كانت هنا، لتوقفت عندما ناديتها. إنها أفضل صديقة لك، ألم تكن كذلك؟.

ـ أقول لك إنني رأيتها! أنا خائفة يا بن. أرجوك أعدني إلى القصر.

واستغرقت بيتسي عدة أيام لتستعيد رشدها من تلك التجربة. وكانت قد رجت بن أن لا يذكر الأمر لأحد. فوافق عازياً الأمر إلى تخيلات أنثوية. ولكن عندما التقيا بعد أسبوع، لاحظت فوراً أنه يعاملها بجدية، فسألته:

- ما الأمر يا عزيزي؟
فقال:

- هناك إشاعة تملأ القرية، ترويها ڤيكي إيسونز. فقد كانت مع تشارلي بايتز في مراعي الكنيسة ليلة أمس، عندما صاحت ڤيكي أن ليديا آتلي كانت هناك تراقبها... لقد ذهبت وتحدثت لتشارلي بهدوء، وقال لي أنهما كانا يهمان بفعل ما كنا ننوي فعله عندما شاهدتها أنت. هل قلت شيئاً سمعته ڤيكي، هل فعلت هذا يا بيتسي؟.

- لم أقل شيء لأي مخلوق.
فحك رأسه بحيرة، وقال:

- حسن... لست أدري... يقول تشارلي أن أكتم الأمر، لأنه لم يشاهد شيئاً. مثلي تماماً. ولكن ڤيكي قالت أن ليديا كانت تقف هناك تلوّح باصبعها، كما قلت أنت تماماً.

وضحك ثم هز برأسه وتابع مبتسماً:

- مسكين تشارلي، لقد فاض به أيضاً، فقد توقف ما كان ينويانه، وتقول ڤيكي أن عليه الانتظار حتى زواجهما.

- وكذلك أنت يا بن ريدجواي!.

وفي شهر أيار (مايو) سُمعت قصة أخرى في القرية لزوجين في نفس الظروق قاطعتهما ليديا آتلي. ومرة أخرى لم يشاهد الرجل شيئاً، بينما راقبت الفتاة الطيف يبتعد إلى بوابة فناء الكنيسة، ونظرت إلى الداخل لفترة، ثم استدارت واختفت.

حتى ذلك الوقت، لم يكن من جدوى في إخفاء، بيتسي وبن ريدجواي قصتهما عن الناس. ولكان غريباً بالفعل لو لم يعزو الناس في «رينغستيد» ظهور ليديا لأسباب خارقة للطبيعة. ومع كل ما كان يقال، بقي روبرت هيكنز متكتماً، مع أن الجميع اقتنعوا بعد وقت قصير أن الفتاة قد

لقيت نهاية تعيسة. وفي الأحاديث السرية للقرية كان يطلق على الجزار ويكلي بال إسم «قاتل ليديا».

ولم يكن هناك أي دليل. وحدها بيتسي كانت تعرف بالعلاقة بين ليديا وبال. ودليل غير ثابت ليس بالدليل الكافي. بينما غياب الجثة يجعل سوق الاتهام مباشرة أمراً مستحيلاً.

ولم يُظهر بال أنه على علم بالقصص التي تدور عنه في القرية. واستمرت القصص عن اتصالاته غير الشرعية تدور وتدور، ومع ذلك فقد كان كل يوم أحد، يتقدم عماله أمام الكاهن الذي اختاره ليكون نائبه في التراتيل الصباحية والمسائية.

وهكذا مرت خمسة عشرة سنة. بقيت خلالها قصة ليديا ندبّة خضراء بتوالي ظهورها للمتغازلين لتهدئة غليان دمهم الزائد. وكانت تظهر فقط في النور الضعيف للأمسيات في الربيع والصيف، وأحياناً بعد ظهر أيام الآحاد في الشتاء. ولكنها كانت تفضل الظهور في ضوء النهار.. وهكذا أصبحت «دينغستيد» أكبر قرية مسكونة في إنكلترا.

ثم، أتى يوم في ربيع عام 1865، كان فيه دانييل هوبسون يسيّج الممر الضيق الذي يمر ببستان ويكلي بال ويحيطه بخندق ليمنع عنه الماء... ففي الشتاء الذي مر، طافت ساقية قريبة عن مسارها وطغت على الخندق الذي يحاذي أحد أطراف الممر. وهذا ما لم يحدث من قبل. وهكذا فإن ثلاثة أو أربعة غرف دفن قرب البوابة طافت بالمياه، واستشار حارس المقبرة الكاهن وأعطى الأخير تعليماته بأن يحفر الخندق ويعمّق، حتى إذا عاودت الساقية الطوفان لا يدخل الماء إلى المدافن.

وكلف دانييل هوبسون المهمة. وبينما كان مشغولاً بها، في مكان ليس ببعيد عن كوخ ويكلي بال في بستانه. اكتشف هيكلاً عظمياً لامرأة، وفي المسار الطبيعي للأشياء، جرى التحقيق. وأبلغ الدكتور جايمس،

المحقق بأسباب الوفيات، للمحكمة أن الهيكل العظمي لامرأة شابة، لم يكتمل نضوجها وأن فكها الأسفل ينقص منه أسنان.

ولم تكن بيتسي الوحيدة الصديقة لليديا آتلي والتي تعرف أنها انتزعت إثنين من أسنانها. فعدة أفراد من المحلفين في المحكمة يعرفون هذا، وعلى الرغم من محاولة المحقق إعاقتهم بالإشارة إلى أن الدليل ضعيف، إلا أنهم وجدوا أن الهيكل العظمي لا بد وأن يكون لليديا آتلي، وأنها قتلت وأن الرجل الذي قتلها هو ويكلي بال، الجزار.

ولم يدفعهم أي شيء قاله الدكتور جايمس إلى نقد الحكم أو سحب إسم ويكلي بال من رأس لائحة المتهمين، ولم يكن لديه أي أخبار في أن يسجل حكمهم رسمياً، ويبلغ السلطات فيما بعد.

وكان على نائب شريف المنطقة، أن يجري تحقيقاته، وأمام دهشته كل المحامين قرر أن الدليل، ولو أنه ظرفي، يستدعى اعتقال الجزار بتهمة القتل. وهكذا أحيل بأمر من القاضي، والكاهن، والعمدة إلى محكمة «نور ثامبتون».

وأخذ ويكلي بال الأمر بجدية قصوى حتى أنه عين أكبر محام في المقاطعة للدفاع عنه، والذي بدوره طلب خدمات أحد أفضل المدافعين أمام المحاكم.

وأكد المحاميان لموكلهما رأيهما:

ـ ليس أمامك قضية نخاف منها سيد بال... فالمحكمة العليا مجبرة على رفض الاتهام.

وأمام دهشة هذين السيدين، ودهشة العديدين، وجدت المحكمة العليا إن الشكوى صحيحة، وكان من الأفضل على بال أن يوفر النقود التي صرفها على الدفاع... ولكن وبعد مرافعات استمرت يومين كان فيها

كل من بيتسي ريدجواي، التي أصبحت أماً لستة أطفال بعد أن أثبت بن ريدجواي أنه عند وعده، وروبرت هيكنز، الشاهدان الأساسيان، وجد بال بريئاً. والعامل الرئيسي لبراءته كان اكتشاف محامياه أنه في مكان ليس ببعيد عن وجود الهيكل العظمي كان هناك في السابق مدفن للغجر، وهكذا نجح في أن يحث المحكمة على أن تعلن أن ما من دليل يثبت أن العظام التي اكتشفها دانييل هوبسون لم تكن لفتاة غجرية ماتت لأسباب طبيعية ودفنت على يد قبيلتها.

ولاقتناع أهل قرية «رينغستيد» بصحة اتهاماتهم، لم يتقبلوا الحكم... ومع أنهم لم يستطيعوا الثأر لحياة الفتاة بحياة الجزار، إلا أنهم رفضوا بقاءه بينهم. وأدرك ويكلي بال قوة رأيهم به، فباع محله ومنزله وغادر المقاطعة.

أما بالنسبة لليديا آتلي، فدفن عظامها في أرض مدفن الكنيسة المقدسة مع كل تكريم الكنيسة له، لم يكن كافياً لإراحة روحها.

ولعدة سنوات، منعت، بظهورها في الوقت المناسب، وقوع العديد من شباب «رينغستيد» بالمحظور.

ولكن بمرور السنين، أصبح ظهورها أقل وأقل.

آخر مرة ظهر فيها كانت عام 1874، فبطريقة شاعرية، قاطعت مغازلة صيفية كان يقوم فيها إيزاك ريدجواي أبن بيتسي البكر.

شبح ليتلكوت

«ليتلكوت» هو من أشهر دور أصحاب اللأملاك في «ويلتشاير». كان له العديد من الأصحاب، بينهم إناس مميزون بثرائهم أو بأصلهم. . . . أو بمجرد جورهم وظلمهم. وترك المشهورون والشريرون آثارهم الشبحية على الغرف القديمة، والممرات، والسلالم. ويقبع «ليتلكوت» متخم بالخرافات، وهمسات المآثر الشيطانية، والجرائم السرية، وسط غابة رائعة، في غفلة عن السنوات المارة، مسكون، كما يقال، حتى نهاية الزمن، بشرور من سكن فيه.

لقرنين أو أكثر، كان يملك «ليتلكوت» القريب من «هانغرفورد» عائلة «داريل» وهم من ملأوا القصر بالأشباح، ليس فقط المنزل بل الجوار أيضاً. حتى إلى أبعد من «هانغرفورد» إلى طريق «سالزبوري».

«ويل داريل» المتوحش كان نزل «ليتلكوت» في عهد اليزابيت الأولى.

وامتلكت عائلة داريل ليتلكوت في وقت مبكر من القرن السادس عشر ومن خلال جرائم ويل المتوحش خسرته، وتقول أسطورة محلية، أنه لولاه

لكانت عائلة داريل لا تزال تسكن القصر حتى الآن. ولقد استملكت عائلة «ويلز» مؤخراً القصر ومات السير إيرنست ويلز هناك عام 1958.

وأزعجت الأشباح عائلة ويلز. وعندما كان الماجور جورج ويلز يسكن هناك، أخذ كلبه ينبح في منتصف الليل، موقظاً المايجور وأهل المنزل كله. ودون جدوى حاول المايجور تهدئة الكلب. وكان الكلب يقف أمام باب غرفة نوم مغلق، وبره منتصب يزمجر برعب.

وفتح المايجور الباب، فشاهد شبح ليتلكوت يمر أمامه، إمرأة في قميص نسائي، تلوى يديها وكأنها تبحث عن شيء.

وكان لبحث المرأة الملح أصله المرعب لإحدى الليالي منذ أربعمائة سنة مضت. وبدأ في دق عنيف على باب كوخ السيدة بارنز في قرية بركشاير الصغيرة من ضواحي «غريت شيفورد».

يومها كانت السيدة بارنز معروفة بأنها قابلة القرية . . . قابلة مشكوك بقدرتها وكفائتها. ولم تكن غير معتادة على الاستيقاظ في منتصف الليل كي تقدم خدماتها المليئة بالشكوك لعديمي الحكمة إضافة إلى «المضطرات» التعيسات.

وفتحت الباب لتواجه رجلين شابين متكبرين، متخفيان بعباءات فضفاضة. وخلفهما جوادان بدا عليهما التعب والإرهاق من البخار المتصاعد من أنوفهما في تلك الليلة الباردة وهما يضربان الأرض بحوافرهما. يجران وراءهما عربة.

ولم تعجب السيدة بارنزبمنظر زائريها. والأكثر أن طلبهما أثار ريبتها، فقد طلبا منها أن تحضر في الحال معهما للإشراف على ولادة سيدة تعيش في مكان ليس ببعيد عن «غريت شيفورد» . . . ولكنهما، كما يبدو، طلبا منها الذهاب إلى هناك معصوبة العينين لتوضع أمام السرير. وعندما سألت عمن تكون السيدة قيل لها أنها الليدي «نيفث».

وليس من المستبعد أن السيدة بارنز لم تصدق ما قيل لها. فهي تسمع عن الليدي نيفث، زوجة السير هاري نيفث، بارون تشالتون. ومن غير المحتمل أن تكون هذه هي السيدة التي دعيت لخدمتها.

وعندما وضع الذهب بين يديها وافقت على العناية بالسيدة، كائناً من تكون، وبالطريقة المطلوبة منها.

وهكذا وضعت عصبة على عينيها واقتيدت إلى العربة، التي انطلقت بها بسرعة لا توصف. ولم تستطع أن تعرف الاتجاه الذي سارت به. وعندما توقفت العربة أخيراً، وجدت نفسها منقادة إلى ما كان واضحاً أنه منزل ضخم. واقتيدت عبر الغرف والممرات والشرفات الداخلية وصعوداً على السلم. وبعناية أخذت السيدة بارنز الفضولية تعد درجات السلم لتجدها واحد وثلاثين درجة، وهي مقتنعة أنها ليست في منزل الليدي «نيفث».

بين كل المنازل القديمة في المنطقة، ليتلكوت وحده له سلم من واحد وثلاثين درجة. ولكن بارنز لم تكن تعرف هذا يومها. كذلك لم تتعرف على السيدة المقنّعة الراقدة في سرير ذو أربع قوائم عالية، عندما رفعت العصابة عن عينيها.

كل ما عرفته، هو أن السيدة لم تكن متزوجة، فليس هناك من عملية ولادة شرعية في منزل كبير كهذا تجري بهذه الطريقة. وأحست بوجود رجل ينتظر في غرفة متصلة بالغرفة التي هي فيها، حيث سمعت صوت نار قوية تشتعل هناك. بين الفينة والفينة كان الأب الفاقد الصبر... إذ من يكن غير الأب؟... يضع المزيد من الخطب فوق النار.

وبسرعة، ودون مراعاة أصول الوقاية، ولّدت السيدة بارنز المرأة. وما إن تم هذا حتى دخل الرجل من الغرفة المجاورة وانتزع الوليد من القابلة بقساوة.

وأخذ الطفل إلى الغرفة المجاورة، ثم رمى جسده الصغير في النار وأخذ يسحقه فوق الجمر بقدمه. وفي لحظات انتهت الحياة القصيرة لذلك الوليد، وفي لحظات أخرى ذاب الجسد فوق ألسنة النار.

ولم تكن السيدة بارنز إمرأة لها ضمير أو سمعة، ولهذا فقط اختيرت لأداء المهمة، ولكنها لم تكن غير إنسانية، وهكذا ثار غضبها لهذا التصرف البربري.

فصرخت، وزيدت صرخاتها على صرخات الأم المذعورة. صارخهما دوى في ليتلكوت، والذي استمع ساكنوه برعب، وقد علموا أن سيدهم قد فعل فعلة شريرة أخرى.

ولم تكن السيدة بارنز تعرف ويل داريل المتوحش. ولكنها وصفته على أنه طويل نحيل له وجه أسود غاضب. وكان هذا وصفاً كافياً ساعد على تأكيد الرواية التي قصتها فيما بعد. حتى أنها لم تكن تعرف أنها في ليتلكوت، مع أنها قد تكون شكت بالأمر، لأن القصص التي كانت تروى عن ذلك القصر كانت حديث الريف كله. ولم تكن متأكدة سوى من أنها لم تكن في منزل الليدي «نيفث».

بعد إتمامها مهمتها، أُمسك بالسيدة بارنز، حسب أوامر ميل المتوحش، لتعصب عينيها مرة ثانية. وكانت قد أصبحت خائفة إضافة للغضب فكل ما تعرفه، أنها قد تتعرض للقتل لشهودها مثل هذه الجريمة. ومع ذلك فقد أقسمت أن لا يفلت قاتل الأطفال هذا دون عقاب لو استطاعت أن توصله أمام العدالة.

ما كان هناك الكثير لتفعله. ولو كان لديها فكرة بأنها في ليتلكوت فليس لديها أية طريقة للإثبات. فهي لا تعرف وجه المجرم، أو الرجلين الذين استحضراها، ولا هوية الأم المصابة المريضة التي أحرق وليدها أمام عينيها.

وما أن أمسك بها الرجلان حتى التفتت مرة أخرى إلى ناحية الأم المسكينة، وأمسكت بيأس الستائر القطنية المطبعة للسرير حيث ترقد المرأة. وكان للستائر طراز غير عادي، وبالهام فجائي تمكنت من انتزاع قطعه منها دون أن يراها أحد.

ثم تم عصب عينيها واقتيدت عائدة إلى العربة، وقطعة القماش في يدها. وهي تنزل السلم عدت الدرجات ثانية لتجد أنها واحدة وثلاثون.

ثم أخذت إلى كوخها في «غريت سيفورد» حيث قيل لها بطريقة مخيفة عن النتائج الرهيبة التي قد تواجهها لو تفوهت بكلمة عما حدث الليلة، لأي مخلوق حي.

وهكذا، لاذت السيدة بارنز، المهددة، الصمت. معتبرة نفسها دون شك محظوظة للنجاة بروحها. ولكنها لم تستطع النسيان. وطاردتها ذكرى تلك الليلة لما تبقى من أيامها. ولكنها لم ترو القصة إلا بعد أن أصبحت على فراش الموت وبعيدة عن منال ويل المتوحش، وأخبرتها لقاض يدعي «بريدجز» الذي سجلها على الورق.

وكان «بريدجز» إبن عمة ويل داريل المتوحش. ونظراً لهذه القرابة، فمن المستبعد أن يقوم القاضي بتسجيل قصة السيدة بارنز رسمياً لو لم يكن فيها بعض الحقيقة. ذكرها للسلم ذو الواحد والثلاثين درجة، ولقطعة القماش التي وجدت تناسب ثقباً في ستائر أحد الأسرة في ليتلكوت، أثارت ما تبقى من قصص كانت تروى حول ويل داريل المتوحش.

وهنا تأتي عائلة «نيفت» إلى القصة، فالسير هاري نيفت وعائلة داريل كانوا على صداقة رديئة. فلطالما تذمر السير هاري حول تصرفات ويل داريل المجنونة المتوحشة في «ليتلكوت».

ولا بد، أنه كان هناك مرارة كبيرة بين العائلتين، مما يفسر سبب تشويه سمعة الليدى «نيفت» بادعاء داريل أمام القابلة أن الليدى المقنعة هي

التي ستلد الطفل.

وكان السير هاري «نيفت» أرسل كتاباً للسير جون ثاين لورد «لونغليت»، والذي حصلت عائلته على لقب الماركيز «باث» عام 1789، وأصبح فيما بعد الدوق بدفورد. ووجد هذا الكتاب في قصر «لونغليت» عام 1870 وكان مؤرخاً لعام 1578 أي حوالي عام وفاة بارنز واعترافها. وكان موضوع الخطاب الجرائم المريبة والتصرفات الشريرة لويل داريل والتي ملأت بفضائحها مقاطعة «ويلشاير» و «بيرك شاير».

وكان من ضمن ساكني قصر السير جون ثاين «لونغليت» رجل يدعى بونهام. شقيقته كانت عشيقة لداريل. وعرف بعد ذلك أنها تلقى معاملة سيئة في «ليتلكوت» وأن طفلاً غير شرعي واحد على الأقل قد حرق لها.

وكتب السير هاري نيفت: ألم يحن الوقت بعد على أن يُدفع السيد بونهام على فعل شيء حول «استغلال شقيقته على يد ويل داريل، وعن أطفالها، وكم عددهم، وماذا حل بهم. فالحديث عن مقتل أحدهم يزداد وسيمس ويل داريل دون شك».

ويبدو أن هذا الخطاب يؤكد رواية قابلة «غريت شيفورد» وقُدّم ويل داريل المتوحش إلى المحاكمة، ولكن الإثباتات هذه كانت واهية. ولم تكن الآنسة بونهام، المستغلة بشكل مريع، راغبة في الشهادة ضده، أو أنها كانت قد ماتت. ويقال أن روحها القلقة لا تزال تجوب ليتلكوت بحثاً عن طفلها المقتول.

وتخلص داريل من العدالة، وحسب الاعتقاد يومها، عن طريق الرشوة والفساد. وعاد إلى ليتلكوت، وتابع حياته المتوحشة المعربدة.

ولكنه لم يعش طويلاً، فوقع عن حصانه بينما كان يقوم بنزهة في غابة ليتلكوت وقتل على الفور. وقيل أن جواده شاهد شبح ضحيته، فتراجع مذعوراً، ورمى به ليلقي حتفه.

وهكذا خرج قصر «ليتلكوت» من أيدي عائلة داريل ولكن شبح ويل المتوحش لم يترك مسرح جرائمه وعربدته وشروره. وقيل أن الشبح يسكن الغرفة الملاصقة لغرفة الولادة حيث حرق طفله الذي لم يرغب فيه. وقيل كذلك أن بقع دم الوليد ظهرت بطريقة غامضة في أحيان متفرقة فوق الأرض أمام المدفأة، ويبدو أن جثة الطفل تريق الدماء التي لم تسقط منها خلال الحياة وعملية الحرق.

كذلك شوهد ويل المتوحش يجوب المكان الذي رماه فيه جواده لرؤيته شبح الطفل الذي قتله راكبه. وعلى ممرات الشرفة الداخلية التي تطل على الطابق الأرضي «الغاليري» شبح الأنسة بونهام في بحث دائم عن طفلها. وصرخات الأم والقابلة في الليال السرعبة بقى صداها يدوي، عبر الغرف والممرات في «ليتلكوت» لقرون عدة، وتسمع حتى هذه الأيام، لو صدفنا عدداً من الناس خلال السنوات الحديثة الذين أبلغوا عن سماعهم لها.

ولقد أوحى «ليتلكوت» بخوف خارق للطبيعة للناس الذين لم يشاهدوا شبحاً من قبل. ولطالما تأثر خدمه بالأشباح ورفضوا الدخول إلى غرف محددة.

ومن الصعب دائماً استبقاء الخدم في المنازل المسكونة. وكان هناك في مرة من المرات أمر صدر في ليتلكوت أن تفتح نوافذه الثلاثمائة وخمسة وستين في كل يوم مشمس، ثم تقفل قبل هبوط الظلام. خادمة واحدة اقتنعت بالقيام بمثل هذا الواجب، إذ لم يجرؤ أي من الخدم على الدخول إلى الغرف المسكونة عندما يهبط الظلام. واعترفت تلك الخادمة أن هذه الغرف كانت تملأها خوفاً وذعراً.

عام 1914 جرى للأميرة ماري لويس تجربة غريبة في «ليتلكوت» روتها في كتاب لها «ذكرياتي لستة عهود» منشورات الأخوة إيفانز.

فقد كانت وصيفتها، السيدة إيفيلين أدامز، إبنة خال للسير إيرنست ويلز، مالك «ليتلكوت» يومها. ولم تكن الأميرة قد زارت المنزل من قبل، ولا شاهدت رسماً له. وهكذا دعاها السير إيرنست لتناول الغداء.

وقادت الأميرة سيارتها مع السيدة أدامز، وما أن اقتربتا من القصر حتى احست بشعور غريب إنها كانت هنا من قبل. فليتلكوت وما يحيط به كانا جديدان عليها، أو هكذا يجب أن يكونا. ومع ذلك، وبشكل صارم، بدا لها مألوفاً لدرجة مثيرة للقلق. وأحست بطريقة غريبة أنها تعرف هذا المكان.

وقُدم الطعام في القاعة الكبيرة، على شرف الضيف الملكي. التي اعترفت يومها وبعد ذلك أن كل تفصيلات المكان بدت معروفة لديها تماماً.

وبالطبع تطرق الحديث إلى قصة ويل داريل المتوحش، والقصة التي روتها قابلة «غربت شيفورد» على فراش موتها. وبعد الغداء دعا السير إيرنست الأميرة ليريها المنزل، وهو عرض كانت تواقة لقبوله نظراً لشعورها الغريب بأنها كانت هنا من قبل.

وفي آخر الجولة وصلوا إلى «الغاليري» الطويل (الشرفة الداخلية التي تطل على الطابق الأرضي) حيث كان شبح للآنسة بونهام يسير بحثاً عن طفلها. وأشارت الليدي ويلز إلى باب عند طرف «الغاليري» البعيد وقالت أن الشبح يخرج من هناك. فقاطعتها الأميرة:

«أوه... لا... أنها تأتي من هناك» وأشارت إلى باب آخر.

وأغمضت عينيها وسارت في الممر، مجذرة السيدة أدامز أن هناك درجتين أمامهما، وأن عليها أن تنتبه لهما كي لا تقع. ولا تزال مغمضة العينين، فتحت الأميرة باباً ثم خطت إلى داخل غرفة صغيرة. وقالت:

«هناك المدفأة التي حرق فيها ويل داريل المتوحش الطفل» ثم عبرت الغرفة، ولا تزال مغمضة العينين، وأمسكت بستائر السرير القطنية، مشيرة إلى حيث الثقب الذي سببته السيدة بارنز منذ ما يقارب الأربعماية سنة مضت.

ثم فتحت عينيها. ولم تستطع تفسير كيف استطاعت معرفة هذه الأمور. وكل ما استطاعته هو الافتراض بأنها كانت السيدة بارنز في أزمنة أخرى... وبما لأنها تمكنت من الدخول إلى هناك وعيناها مغمضتان كما كانت السيدة بارنز مغمضة العينين.

ولقد ماتت الأميرة ماري لويس الآن، وربما تعرف، وربما لا، الرد على الأسئلة التي أثارتها قصتها.

وسيبقى يُذكر أن السيدة بارنز لم تشاهد داخل ليتلكوت أبداً لكونها كانت معصبة العينين، وليس هناك من سبب للافتراض بأنها شاهدته خلال حياتها، لذا لا يمكن لها أن تعرف ما شكله. ومع ذلك فقد بدا مألوفاً للأميرة... وافتراضها أنها لا بد كانت قابلة في الأزمنة القديمة لا بد أنه افتراض خاطيء.

وعلى الأرجح... إذا كنا نود تصديق الوجود السابق... أنها كانت قديماً الآنسة بونهام، لأن الآنسة بونهام تعرف نفس الأشياء التي ادعت الأميرة معرفتها في «ليتلكوت» ولا تعرفها القابلة. والآنسة بونهام من المؤكد أن تعرف قصر «ليتلكوت» من الداخل وهو أمر لم تشاهده السيدة بارنز.

وإذا كان الأمر كذلك، فربما كسبت الآنسة بونهام بعض التعويض لأن تصبح أميرة في حياتها التالية، ولكن إذا كان الأمر هكذا، فهل ستتابع روحها المعذبة في السكن في قصر «ليتلكوت»؟.

لن نعرف أبداً الرد على مثل هذا السؤال.

إنتقام المظلوم

أول نصف من القرن الثامن عشر كانت العائلة المعروفة «هاريس» من «هاين» تقيم في منزلهم القديم في «ديڤون» غير بعيد عن حدود مقاطعة «كورنويل». ومع إنهم لم يكونوا من النبلاء إلا أنهم كانوا عائلة ثرية، تمتد أراضيهم على «آكرات» واسعة تمتد إلى أميال كثيرة من كل جهة من منزلهم. وكانوا يحتلون مكاناً بارزاً بين سادة البلاد الغربية ومحترمون جداً من سكان ديڤون والمقاطعات المجاورة.

في ذلك الوقت كان رأس العائلة، السيد جورج هاريس، وكان معيناً بوظيفة في بلاط الملك جورج الثاني مما يجبره على قضاء جزء كبير من السنة في منزله في المدينة في ميدان (سلاون) وعندما يطلب حضوره إلى البلاط، كان من عادته أن ينتقل إلى لندن مع جزء كبير ممن في بيته ولا يترك سوى بضع خدم في «ديڤون» تحت عهدة ريتشارد موريس، الساقي الذي خدم العائلة لعدة سنوات.

بينما كان في لندن يؤدي واجباته عام 1730، وجد السير هاريس من

ضمن بريده ذات يوم، رسالة من ريتشارد موريس. . وبما أنه أعطى أوامره للساقي بأن لا يتصل إلا في حالة طارئة، فقد فتح السيد هاريس ختم الرسالة بدرجة من الوجل وباقتناع قوي أن رسالة الساقي تحتوي على أخبار سيئة. إقتناعه ثبتت صحته. وكانت الأنباء من النوع الذي دفعه لاستدعاء عربته والإسراع إلى مكتب اللورد تشامبرلين، حيث توسل إليه أن يتوسط له مع صاحب الجلالة ليعطيه أذناً بالغياب من البلاط لأسبوعين أو ثلاثة حيث طرأت عليه مشاكل غير متوقعة تجبره على التواجد في منزله في «ديفون».

وعندما سمع اللورد تشامبرلين الكبير طبيعة هذا العمل، وافق فوراً على طلب المثول أمام الملك، وأرسل طلبه فوراً، حيث أبلغ أن جلالته سيستقبله على الفور. . . والملك أيضاً، كان متعاطفاً مع طلبه. . . وفي الصباح الباكر، في اليوم التالي، بدأ السير هاريس، رحلته إلى ديفون حيث وصل بيته بعد خمسة أيام.

وحال أن نظف نفسه من غبار السفر وانتعش، إستدعى النصف دزينة من الخدم، على رأسهم موريس، إلى مكتبته. وقال بعد أن حضر المرافقان والطباخة أمامه:

ـ أخبرني يا موريس. . . أخبرني ما حدث؟.

وقال الساقي:

ـ في أحد الليالي منذ ثلاثة أسابيع، سيدي. استيقظت ليلاً على أصوات كنت متأكداً أنها قادمة من غرفة الأدوات التي استخدمها والتي لا حاجة لأن أقول لك أنها تحت غرفة نومي. في البداية ظننت أنني مخطيء، فقبل أن أخلد للنوم قمت بجولة في المنزل كما أفعل دائماً، وتفحصت كل نافذة وباب وتأكدت من إقفالها. على كل، بعد أن استمرت الأصوات، وتأكد لي وجود شخص ما في الغرفة تحتي، وظننت أنه أحد الخدم ممن لا عمل لهم هناك، قررت أن أنزل لأرى ما الأمر.

«عندما وصلت إلى الممر خارج غرفة أدواتي، توضح لي أنني لست مخطئاً فقد كان نور الغرفة يشع من تحت الباب، وسمعت أصوات رجال من الداخل، تتحدث بهدوء واقتنعت أن «أيمز» و «بارنويل» المرافقان، كانا يقومان بعمل ما، اعتقدت أنه عمل شنيع بسبب الوقت من الليل، وواقع أن ما من أحد يسمح له بدخول غرفة العدة دون إذني، وبسبب أن أصوات أخرى كانت تصدر من الغرفة.

فقاطعه هاريس:

ـ أصوات من أي نوع؟.

ـ أصوات بدت أنها تشير إلى أن أحد صناديق الأدوات الفضية مكسور.

ـ هل شككت حقاً أن تكون الأصوات التي سمعتها هي للمرافقين؟.

ـ كان هناك صوت رجلين سيدي. وكانا يتحدثان بصوت منخفض حيث أنني لم أستطع تمييزهما، ولكنني أخشى أن تكون الفكرة التي خطرت لي فوراً أنهما المرافقين، إذ لم أتصور من غيرهما يمكن أن يكون في الداخل. وأنا آسف لهذه الريبة الآن، لأنني بهذا التفكير قد لطخت اسمهما. وأعتذر ثانية وثانية يا سيدي، فكلاهما أصر على تقديم استقالته.

وسأل السيد هاريس الرجلين بحزم:

ـ هل هذا صحيح؟.

فنظرا إلى بعضهما وهزا رأسيهما بالإيجاب، فقال:

ـ إذن، كلاكما غبي. . . موريس اعتذر، وعليكما أن تعترفا أن غلطته كانت مبررة في تلك الظروف.

فأجاب أيمز:

ـ مع احترامي يا سيدي، لا أظن هذا. فالسيد موريس بريبته بنا اتهمنا في الواقع بأننا لصوص، أو على الأقل قادرين على فعل أشياء غير شريفة

وخيانية لك ولعائلتك.

ـ ما قولك بهذا بارنويل؟.

ـ أوافق معه يا سيدي في كل كلمة. . . لقد مضى على خدمتنا لك الآن، إيمز حوالي الخمس سنوات، وأما سنتين. والسيد موريس يعرفنا كفاية ليدرك أن ولائنا للعائلة لا يقل عن ولاءه على الرغم من أنه في خدمتك منذ ثلاثين سنة.

وقال لهما هاريس:

ـ لا زلت أعتقد أنها غلطة مبررة. فهل لكما أن تعيدا النظر بقراركما، وأضيف اعتذاري فوقه؟ فأنا أكره استخدام خدم جدد. . . جيد؟

فقال أيمز بعناد:

ـ لست أدري سيدي.

ـ فكر إذاً بالأمر، وسنتحدث بهذا في وقت آخر، تابع كلامك موريس.

واستمر الساقي بشرح أنه عندما شك بالرجلين لم يطلب المساعدة فهو الرجل الوحيد غيرهما في المنزل، والخادمات سيخفن من تقديم المساعدة.

وقاطعه هاريس:

ـ ولكن لا بد أنك كنت تعرف، أن كائناً من يكون في الغرفة، وهو يقوم بما كنت متأكداً منه أي كسر الصناديق، فلا بد أنه قادر على مهاجمتك وأي شخص آخر يقاطعهم في عملهم؟

وقال الساقي أن هذا بدر إلى ذهنه في ضوء النهار ولكنه ساعتها فكر فقط في حماية ممتلكات سيده. . . فقال هاريس:

ـ ما كان يجب أن تفعله هو أن توقظ اثنين من الخادمات وترسلهما إلى القرية لإحضار البوليس، بينما تبقى أنت لتراقب وترى ما قد يفعله الدخلاء أو أين يذهبون.

ـ أجل يا سيدي، أدرك ذلك الآن.

فقال بارنويل:

ـ السيد موريس مخطيء بقوله إننا الرجال الوحيدون في المنزل، فالصبي كان في الغرفة الصغيرة المقابلة لغرفته، حسب ما أعرف.

فسأله هاريس:

ـ الصبي؟.

فقال الساقي:

ـ لقد استخدمت فتى صغيراً في الرابعة عشرة يا سيدي بعد يوم أو يومين من سفرك. لمساعدتي في غرفة الأدوات وتنظيف الفضة. أتى في يوم من الأيام إلى المنزل مع والده الذي أعرف عنه بأن له سمعة نظيفة وشريفة، ليسألني عملاً لولده. ولقد غادرنا الولد الآخر فرانكلين لينضم إلى خدمة السيد «سوفر» يوم رحيلك بالضبط إلى لندن. لذا قدمت مركزه للولد ريتشارد تارويل.

ـ أين هو الآن؟ لم ليس هنا؟.

ـ لقد اختفى يا سيدي.

وأضاف بارنويل:

ـ في نفس الليلة سيدي.

وجد هاريس أنه سيربك الساقي بتدخلاته، فصمم على الانتظار حتى ينهي الرجل قصته قبل أن يسأله شيئاً. وقال للرجل أن يتابع.

ووصف موريس بعدها كيف أنه تقدم من الباب بهدوء، ثم فتحه ليفاجيء من في الداخل. . . وأمام ذهوله لم يكن الرجلان في الداخل المرافقين، بل رجلين لم يشاهدهما من قبل. ومعهما الولد ريتشارد باروبل.

وقبل أن تتاح له فرصة الاستيقاظ من ذهوله، قفز أحد الدخلاء حاملاً قضيباً حديدياً وضربه على رأسه ليفقده الوعي. وعندما عاد إلى وعيه وجد

نفسه مربوطاً إلى كرسي وفي فمه قطعة قماش. وإثنان من الصناديق محطمان ومفتوحان واستطاع أن يرى أن معظم محتوياتهما ناقصة.

فسأله هاريس:

- ألم يسمع أحد الضجة تلك الليلة؟.

وهز الجميع رؤوسهم. وقالت الطباخة السيدة كومينر:

- لا يا سيدي... لم نسمع شيئاً، واستيقظت عند السابعة وناديت ماري وجاين، كما أفعل دائماً ونزلت إلى المطبخ لأحضر الفطار ليكون جاهزاً عند السابعة والنصف. ونزلت الخادمتان بعد عشرين دقيقة... وبعد خمس دقائق دخل المرافقان، وأظن أن أيمز قال «ألم ينزل السيد موريس بعد؟» وعندما قلت لا ضحك وقال «لقد نجونا من جديد».

وقاطعها هاريس:

- ماذا تعتقدي أنه عنى بهذا؟

- السيد موريس متشدد حول أوقات الوجبات سيدي، وهو عادة ينزل إلى قاعة الخدم أو المطبخ عندما تكون العائلة في لندن قبل خمس دقائق من الوقت المحدد، حيث يجب أن يكون جميع الخدم مجتمعين، مرة أو إثنين مؤخراً في الصباح تأخر المرافقان وكان سيؤنبهما لولا تأخيره، عن الوقت المحدد.

«ومع ذلك فلم أفكر بالأمر كثيراً فقد كنت مشغولة بالطبخ، إلى أن قال أيمز «ماذا حدث للرجل العجوز؟ هل حدثت معجزة وغط في النوم؟». فقلت له: «سيحضر قريباً. ومن الأفضل أن لا تجلسا إلى المائدة قبل أن يحضر، فهو يكره أن لا يكون الأول في الجلوس». وهكذا انتظرنا، وعندما مرت عشر دقائق بدأت أتساءل، فطلبت من أيمز أن يصعد ليدق باب السيد موريس، فيخبره عن تأخره.

ونظر هاريس إلى أيمز، فأكمل القصة:

- صعدت إلى غرفته وقرعت الباب، وبعد مرتين أو ثلاثة ولم أحصل على رد، فتحت الباب ولم أجده في الداخل. ولكنني لاحظت أن سريره غير مرتب. وعندما خرجت من الغرفة لاحظت أن حجرة الصبي الصغيرة كانت مفتوحة وفارغة، وتذكرت أن الصبي ليس في المطبخ ينتظر معنا، كما هي عادته. فظننت أنهما قد استفاقا باكراً ويعملان في غرفة الأدوات، ولم ينتبها للوقت. وهكذا نزلت إلى غرفة الأدوات لأجد السيد موريس مكمم وموثوق إلى كرسي كما أخبرك سيدي.

وتابعت السيدة كومينر:

- ما عرفناه فيما بعد، أن صوت أيمز يصيح بشيء يشبه كلمة «النجدة!»! فأسرع بارنويل من المطبخ وكذلك الفتيات وأنا لحقت بهم. وعندما وصلنا إلى غرفة الأدوات كان أيمز قد أطلق سراح السيد موريس وكان يفتح له فمه لتوه. وأول كلمة قالها كانت «لقد سرقنا! استدعوا البوليس!».

وقال أيمز بارنويل «إذهب أنت» وركض بارنويل، فساعدنا السيد موريس للوقوف وكان متكدراً جداً، وعندما وجد أن الصندوقين فارغين، ظننته سيغمى عليه.

فسأل هاريس:

- هل وصلت الشرطة بسرعة؟

- بعد نصف ساعة سيدي. وأخبرناهم ما حدث، وماذا سُرق. وإن الولد أيضاً اختفى... وبدأوا التحقيقات على الفور، ولكن حتى الآن لم يكشفوا أي أثر يا سيدي.

- وماذا عن الولد؟

- لم يظهر أثر لتارويل أيضاً سيدي. واحتج والده أن إبنه ليس لصاً. ولكنني شاهدت الولد في الغرفة مع اللصين سيدي. بعيني الاثنتين.

وسأل هاريس:

ـ كيف دخل اللصان إلى المنزل؟ هل كسرا نافذة؟

ـ لا يا سيدي، بل عبر الباب الجانبي، الذي لم يكن مقفلاً، ولا بد أن الولد كان يعرف ساعة قدومهما وأدخلهما إلى المنزل.

ـ وماذا أخذا؟.

ـ الأربعة شمعدانات فضية الكبيرة ذات العصفور وثلاثة أطباق تقديم كبيرة، وقصعتان للحساء من الفضة، أوعية الملح الفضية، التي قدمتها صاحبة الجلالة الملكة آن للسيدة هاريس. .

وعندما وصل آخر رائحته، فكر هاريس قليلاً ثم قال:

ـ أعتقد أن الأمر كان يمكن أن يكون أسوأ. ولكنه سيء كفاية. . . وأنا آسف على الشمعدانات الفضية وأوعية الملح بشكل خاص.

وقالت السيدة كومينر:

ـ ربما تعاد الينا.

فابتسم هاريس للمرة الأولى وأجاب:

ـ ربما سيدة كومينر، يجب أن نأمل للأفضل.

وقال الساقي:

ـ ألوم نفسي لاستخدامي الولد دون التحري عنه وعن عائلته وأخلاقه. ولكن الوالد بدا شريفاً جداً.

ـ يجب أن لا تلوم نفسك، وليبارك الله روحي، فنحن لسنا أول عائلة تُسرق. وأستطيع القول أننا لن نكون الآخرين، حسن. . . شكراً لكم جميعاً. سأتناول العشاء كالعادة سيدة كومينر، حال أن تجهزيه وأحذرك إنني جائع. بإمكانكم جميعاً الذهاب، وليبق أيمز وبارنويل هنا.

وبعد أن خرج بقية الخدم، نظر إلى الشابين قائلاً:

ـ أنظرا إلي. . . أريدكما أن تغيرا رأيكما حول الاستقالة. موريس أخذ

يطعن في السن. وهو يحمل مسؤوليات كبيرة عندما أكون وعائلتي غائبين. ويجب أن تحاولا جهدكما عذره.

فقال أيمز مذكراً:

ـ لقد ظننا على الفور اللصوص، وهذا ما يقف في حلقي يا سيدي.

ـ أجل أعرف، وأضيف اعتذاري إلى اعتذاره، وهل يفيد لو زدتكما جنيه ذهب على أجركما السنوي.

ومرت لحظة صمت صغيرة ثم ابتسم أيمز:

ـ أجل يا سيدي.

ـ وأنت بارنويل؟.

ـ أجل أجل يا سيدي.

ـ عظيم. . . إذاً لقد سوى الأمر! وهكذا تجنبت عناء التفتيش عن خدم جدد وخاصة مرافقين. بإمكانكما الانصراف الآن.

وهما خارجان ناداهما:

ـ هل بدا لكما أن الولد يمكن أن يكون لصاً أو شخص يتعاون مع لصوص؟

فاستدار أيمز وقال:

ـ لا يا سيدي. . . بل بدا جيداً صادقاً وبسيطاً. وتواق للمساعدة.

وأضاف بارنويل:

ـ كما أنه كان سعيداً هنا. . . ولم يمضي على وجوده سوى بضعة أسابيع. ولكنه لم يتردد في المزاح معنا.

بعد يومين من التحقيقات الخاصة، دون الوصول إلى نتيجة، عاد السيد هاريس إلى لندن وتابع واجبه في البلاط. . . وبعد أربعة أشهر عاد وعائلته إلى «ديفون» حيث علم أن السلطات فقدت كل اهتمام بالقضية وأن عليهما أن يتقبلوا خسارة ممتلكاتهم.

وبما أنهم كانوا متعبين أثر الرحلة، إقترح السيد هاريس أن يمضي الليل في الفراش الذي يبقى محضراً في غرفة ملابسه، تاركاً لزوجته أن ترتاح في السرير ذي الأربعة قوائم مرتفعه الفاخر. ولم تعترض السيدة هاريس التي كانت مرهقة بدورها. وبعد وقت قصير من العشاء أعلنت أنها ستذهب للنوم. فقال لها السيد هاريس:

- سأذهب مع موريس في جولته . . . وسألحق بك.

وهما يجولان في المنزل لاحظ هاريس الدقة التي يتفحص بها موريس كل قفل نافذه وباب خارجي حتى أنه مضى إلى أبعد من هذا بإقفاله بعض الأبواب الداخلية . . . وتحدثا قليلاً، حسب عادتهما وهما يؤديان مهمتهما الليلة. واعتقد السيد هاريس أن تأثير السرقة هو الذي دفعه إلى ملاحظة الروتين الذي يقوم به الساقي، فقد وجد نفسه مندهشاً أكثر فأكثر من دقة الساقي وحذره. فسأله:

- هل تقوم بمهمتك إلى هذا المدى دائماً يا موريس؟.

- أوه . . . بالتأكيد يا سيدي.

- حتى إلى درجة إقفال بعض الأبواب الداخلية؟.

وبدا الساقي مندهشاً:

- بالتأكيد سيدي! لقد كان براونتون، ساقي والدك يدفعني لهذا سيدي فمن تعليمات المرحوم والدك أن تقفل الأبواب الداخلية أيضاً. بعد حدوث سرقة في الماضي يا سيدي. وهكذا كان يتم الأمر لما يقرب من أربعين أو خمسين سنة كما أذكر يا سيدي.

فصاح هاريس:

- فليبارك الله روحي. هذا يظهركم أثق بك يا موريس، فهذه الليلة هي أول مرة أراقبك وأنت تقفل الأبواب الداخلية . . . أي منها تقفل؟

- من الأبواب الداخلية سيدي؟ تلك التي لقاعة الرقص، تلك التي من غرفة المشتل إلى غرفة الاستقبال، وتلك من غرفة الاستقبال الكبيرة إلى الردهة، والباب إلى جناح الخدم والباب إلى غرفة أدواتي سيدي.

- حقاً!.

وكانا في هذا الوقت قد عادا إلى الردهة، وتمنى السيد هاريس ليلة سعيدة لموريس، ثم بدأ يصعد السلم. وهو يصعد، سمع موريس يدير المفتاح في قفل باب الممر الذي يصل جناح الخدم بالردهة، ليقفله.

وكانت السيدة هاريس قد آوت إلى فراشها، وصرفت خادمتها الخاصة، فدخل ليتمنى لها نوماً سعيداً، وقال لها وهو يجلس على حافة السرير الكبير:

- أتعلمين . . . لقد كنت أجول مع موريس كل ليلة لنقفل الأبواب، على الأقل ونحن هنا، ولفترة الثلاثين سنة الماضية، واكتشفت الليلة ولأول مرة إنه إضافة لتفحصه كل نافذة وباب خارجي، يقفل عدداً من الأبواب الداخلية.

وتثائبت زوجته:

- ولكن كان بإمكاني قول هذا لك.

- أجل.

وبدا ساهماً يفكر . . . ثم صاح:

- حتى باب غرفة أدواته! يا للسماء! يجب أن أسأله هذا في الصباح!

فسألته زوجته بريبة:

- حول ماذا يا عزيزي؟

- حول أين يحتفظ بمفتاح غرفة الأدوات بعد أن يقفلها في الليل.

- وهل هذا مهم يا عزيزي؟

- بل مهم جداً!

- حسن . . . سأذكرك في الصباح . . . قبلني وتصبح على خير، اذهب إلى سريرك، يبدو عليك أنك بحاجة للرقاد.

- أجل، أنت محقة يا عزيزتي.

وأتم واجباته معها، ثم أقفل ستائر السرير، وذهب إلى غرفة ملابسه وبعد ربع ساعة كان في سريره وعلى وشك النوم. بعد خمس دقائق، وا كانت السيدة هاريس لا تزال صاحية لسمعت أصوات شخير زوجها غ الواعي لمشاكل الدنيا.

ومن النادر أن ينام السيد هاريس هكذا، ومع ذلك، ففي منتصف الليل استفاق فجأة. . . وعندما أعاد سرد القصة فيما بعد، قال أنه كان قد صحى تماماً وعلى الفور، مع أنه لا يعرف كيف ولماذا.

وعلى ضوء قنديل صغير احتفظ معه مشعلاً، شاهد ولداً يافعاً يقف عند أسفل سريره. . . وتابع القول:

- ومع أنني لم أشاهد الولد من قبل إلا أنني عرفت على الفور أنه ريتشارد تارويل، الذي اختفى ليلة السرقة منذ أربع أو خمسة أشهر.

وكان ذهول السيد هاريس كبيراً، وظن أن الولد تخلص من الأسر باختبائه في مكان ما من البيت، آخر مكان قد يفكر في أن يبحث فيه أحد عن هارب من وجه العدالة، ومكان الجريمة نفسها.

ولكن الحيرة أصابته أيضاً، بمجيء الولد إليه الآن. فلو كان متواطئاً مع اللصوص، كما أقسم موريس على هذا، فإن سيده سيكون آخر شخص يفكر في الظهور عليه.

فجلس في السرير وسأله:

- ماذا تريد مني في مثل هذه الساعة من الليل؟

ولم يرد الصبي، بل أشار باصبعه فقط. فعاود السيد هاريس سؤاله:

- هل أنت أصمّ؟ أخبرني، لماذا أتيت إليّ في مثل هذه الساعة.

ولم يتكلم الغلام، بل أشار ثانية ثم استدار ومد أصبعه إلى الباب.

وظن هاريس أن الولد قد عانى من شيء أخافه ومنعه من الكلام. وفهم من الإشارات أنه يرغب في أن يلحقه سيده. . . وبإحساس ساخط قليلاً، خرج هاريس من السرير، ووضع الروب حوله، وحمل سيفه تحت ذراعه، ولحق بالولد، الذي كان لا يزال يهز يده ويمد ذراعه بإشارات إلى خارج الغرفة.

وما أن سمع هاريس صوت وقع أقدامه على سجادة الممر، حتى لاحظ أن الولد يتحرك دون أن يصدر عنه أي صوت، على الرغم أنه كان يرتدي «بوطاً» ثقيلاً. وعندها بدأ يتساءل عما إذا كان الولد حياً أم أنه شبح.

وروى فيما بعد:

- لم أحس بالخوف، فالولد، أكان حياً أو روحاً، بدا مخلوقاً لطيفاً وكانت أقوى رغبة لدى أن أرى إلى أين سيقودني ولأي هدف.

والولد يتقدمه بعدة خطوات نزل الإثنان السلم، ثم عبر ممر قصير إلى الباب الجانبي، الذي وجده هاريس، مذهولاً، غير مقفل ومفتوح. مع أنه منذ فترة قصيرة شاهد هاريس يقفله بيده، وهكذا خرجا إلى الحديقة.

وقاده الولد إلى بعد حوالي مئة يارد يتقدمه إلى شجرة سنديان ضخمة، مخفية عن الأنظار بشجيرات قصيرة وأشواك، تركت لتنمو .هناك لمدة لا يعلمها أحد. ووقف الولد عند الشجرة، وأشار إلى الأرض بأصبعه، وهو لا يزال ساكتاً لم ينطق بكلمة واحدة، وبدا أنه مر حول الشجرة إلى الجانب الآخر.

وكانت ليلة منيرة مضيئة، واستطاع هاريس أن يرى طريقه دون صعوبة

منذ تركا المنزل، ولكنه عندما لحق الولد حول الشجرة، كان قد اختفى.
فناداه هاريس بصوت منخفض:

ـ ريتشارد تارويل! أين أنت؟ هل تسمعني؟

ولم يسمع الرد، ولا حتى بعد أن نادى ثانية، فلو أن الولد كان حياً لما استطاع المرور عبر الشجيرات واوشواك التي تسد المنافذ دون أن يسمع له صوت. وعندها قال لنفسه أنه شاهد «ظهوراً».

والآن، عليه اكتشاف قصد الصبي من المجيء به إلى هنا، ولكن بما أنه لا يستطيع فعل شيء في مثل هذه الساعة، فقد عاد إلى المنزل، وأقفل الباب الجانبي خلفه، وعاد إلى سريره، ولكنه لم يستطع النوم، وأخذ يقلب في ذهنه بحثاً عن أفضل وسيلة يعمل بها.

وببدء ظهور أول ضوء للصبح لينير غرفته عبر النافذة، التي أزاح الستائر عنها قبل نومه، حتى نهض من سيره وارتدى ملابسه. وخرج بهدوء، وشق طريقه إلى الغرفة التي ينام فيها المرافقان، أيمز وبارنويل.

وبعد أن طمأنهما بأن لا يخافا شيئاً قال:

ـ أريدكما أن تنهضا من السرير وتأتيا معي. أخرجا بهدوء، فأنا لا أرغب في إيقاظ أي من سكان المنزل غيركما.

وعندما انضما إليه قرب الباب الجانبي، كان قد أحضر مجرفتين من سقيفة الحديقة. وقال لهما:

ـ خذا هذه واتبعاني.

وقادهما إلى شجرة السنديان التي قاده إليها قبل وقت قصير شبح الولد «ريتشارد تارويل» وأشار إليهما إلى المكان الذي أشار إليه الولد قبل أن يختفي وقال «أريدكما أن تحفرا هنا».

ومع حيرتهما، لم يطرحا أي سؤال. وبدئا العمل، وخلال دقائق قال

بارنويل بدهشة:

ـ هناك شيء مدفون هنا!

وصاح هاريس بصوت منخفض:

ـ آه! إعمل بحذر إذن، فأنا أحس إنك ستصدم إضافة إلى دهشتك بما ستجد.

ثم قال أيمز:

ـ هناك ملابس هنا!

ووضع الرجلان المجارف من يديهما، وركعا على الأرض وبدئا ينبشان الأرض بأيديهما، ويكشفان عند كل حفنة تراب يزيحانها عند ملابس أخرى. ثم صاحا معاً: «يا إلهي!» إذ تعرفا على معطف بال وممزق وتابع أيمز:

ـ هذا معطف الولد!

فقال هاريس:

ـ وإذا لم أكن مخطئاً، فجثته هنا في داخله.

ولإدراكه نوع الأفكار التي كانت تمر في ذهنيهما وهما يعملان، قال لهما باختصار، ما الذي جعله يأتي بهما إلى هنا وتابع:

ـ أخشى أن نكون قد خدعنا ببراعة. فلعدة سنوات وثقت بموريس دون أي تساءل... ولو جاء شخص إليّ وأشار إلى كم كان رجلاً غير شريف، لقلت له أنه لم يعد صديقاً لي.

فقال أيمز:

ـ ولكنني وجدته مقيداً، أقسم بشرفي يا سيدي.

ـ أنا لا أشك في كلامك. وما أعتقد أنه حدث هو التالي: لدى موريس شركاء أدخلهم إلى المنزل... وبينما كانوا يسرقون الفضة فاجأهم

الصبي. ومن الطبيعي أن يضطروا إلى إسكاته ليحموا أنفسهم. . . ومن هو من فعل هذا العمل الشنيع، أمر غير مهم، فهم أمام العدالة مذنبون. أتذكرون إنني عندما استجوبتكم لم يشر موريس إلى الغلام أبداً؟ ولم يذكر أن سرير الولد كان فارغاً عندما غادر غرفته؟ مع أنه كان من السهل عليه ملاحظة هذا. بل ادعى أنه دهش عندما وجد الغلام في غرفة الأدوات، وصلّحتما له خطأه بقولكما أن هناك ذكر آخر في المنزل. أتعرفون أين يحتفظ بمفتاح غرفة الأدوات بعد أن يقفلها ليلاً؟.

فأجاب أيمز:

- في درج الخزانة الصغيرة قرب سريره دوماً.

- إذن، فأي دليل يدينه أكثر من هذا. . . فلكي يحصل أي إنسان على مفتاح غرفة الفضة، عليه أن يأخذه من درجه دون أن يوقظه من منامه. وهو أمر صعب ومستحيل على صبي غير مدرب. لا تقولا شيئاً لأي من الخدم وخاصة لموريس. . . وحال أن تتناولا الفطار يا أيمز، إذهب فوراً إلى القرية واحضر الشرطة.

عندما وصلت الشرطة، وأحضر موريس إليهم ووجه له الاتهام، أنكر في البداية. ولكن عندما أخذوه إلى شجرة السنديان إنهار واعترف، بأن كل شيء حدث كما خمّن هاريس. فقد كان له شريكان، أدخلهما إلى المنزل من الباب الجانبي، واكتشف الولد أمرهما فهاجمه أحدهم وقتله ودفنه ثلاثتهم تحت السنديانة. وبعد أن فرغوا من هذا، تحدثوا عما سيفعلون، فبدر لهم أن يكموا فم موريس ويربطوه إلى الكرسي.

وكان على الرجلين أن يأخذا الفضة إلى «بلايموث» ويتخلصا منها هناك، ويرسلان للساقي حصته، ولكنهما خاناه ولم يسمع منهما أي خبر.

ووجد موريس مذنباً في محكمة «أيكستر» وحكم عليه بالموت، وشنق. ولم يكتشف شريكاه، ولا أثر الفضة المسروقة.

وكل تفاصيل هذه القصة مدونة في سجلات محاكمة موريس، حيث أدلى هاريس بشهادته، متجنباً بوقار ذكر تجربته مع ريتشارد بارويل وأنه عاد لينتقم ممن قتله.

إنتقام الأموات

كم للجسد من قوة بعد الموت، وما هي؟ العديد من الناس قد يستسخفون فكرة أن تكون للجثة أكثر من التآكل بعد الوفاة. فكيف تكون لها القوة؟ وفعلاً. . . هذا ما يشير إليه التفكير السليم.

ولكن، بعد دراسة بعض القصص الموثوقة جيداً لأحداث غريبة جداً، من الأجدى تعليق الحكم حول ما يحدث بعد الموت.

وهنا، قصتان مميزتان حقاً. . . الأولى عن تجربة مروعة عن مجموعة من تجار الفرو كانوا ينقلون جثة زميل لهم في إصقاع الشمال الغربي القطبية المسكونة. . . والثانية قصة رهيبة عن رعب شبحي عن أيام استكشاف أوستراليا.

هناك العديد من القصص والأساطير عن جثة شخص ميت لها قوة خارقة للطبيعة. ومن المقبول به في بعض المجتمعات البدائية، أن حياة البعض تتأخر في الجثة. ولقد رويت عدة قصص تشير إلى بعض الحقيقة في هذا القول.

من يعلم ما هي الحقيقة الكامنة وراء مثل هذه الأحداث الغريبة؟ وبإمكان القارىء أن يستخدم مخيلته وبصدر حكمه ويكوّن استنتاجاته.

تتعلق القصة القطبية بجثة تاجر فرو جسور إسمه «بيرز» كان يدير مركز شركة خليج هدسون في قلعة «ماكفرسون» التي تقع عن نهر «بيل»، رافد مهم من روافد نهر «ماكنزي» الذي يقع إلى أقصى الشمال على بعد أقل من مئة ميل من المحيط المتجمد القطبي.

وكان بيرز من أصل إنكلو إيرلندي سافر إلى الشمال البعيد عام 1840. . . وأمضى ثلاثة سنوات في مركز شركة خليج هدسون قسم «ماكنزي» في قلعة «سيمبسون» ثم انتقل إلى قلعة «نورمن» وأخيراً إلى قلعة «ماكفيرسون» أكثر محطة بعيدة شمالاً للشركة، أقرب إلى المحيط المتجمد بخمسماية ميل من قلعة «سيمبسون».

وكان بيرز مجيداً في عمله، محبوب من أصدقاءه، وشعبي بن أهل الأسكيمو في محمية نهر «بيل».

عام 1849، تزوج إحدى السيدات الجسورات من اللواتي رافقن أزواجهن لتحمل قساوة العيش القطبي في أيام الاستكشاف الأولى عندما لم يكن هناك سوى القليل القليل من وسائل الراحة المدنية تبسط لهن وحشة ذلك الطقس الرهيب. . . وولد لهما طفلان.

ولم يكن بيرز سعيداً في قلعة «ماكفرسون» مع أن هناك دلائل تشير إلى سعادة زوجته، فقد بقيت هناك بعد موته وتزوجت ثانية. ولم تكشف أبداً قصة تعاسة بيرز في هذه القصة. قد تكون قصة إنسانية. . . تتعلق بزواجه. . . وواقع أن زوجته هي الإمرأة الوحيدة في هذا المركز المعزول خلف الدائرة القطبية، وربما كان يسعى إليها رجال آخرون.

ومع أن عمره لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، إلا أن بيرز بدأ يتلقى إنذارات الموت، وأخذ عقله يفكر فقط بمكان دفنه. وعبّر عن رغبته

الشديدة في أن لا يدفن في «فورت ماكفرسون» حيث لم يكن سعيداً. ولا رغب في أن يدفن في «فورت نورمان».

ومات فجأة ودون توقع في 15 آذار (مارس) عام 1853، ودفن مؤقتاً، في فورت ماكفرسون.

الرجل الذي حل مكانه في إدارة المركز كان الكسندر ماكنزي. وعام 1855 تزوج ماكنزي أرملة بيرز.

وكان جسد بيرز لا يزال متجمداً في قبره المؤقت على ضفاف نهر «بيل» والحرارة دائماً تحت درجة التجمد، بقيت الجثة في حالة ممتازة من الحفظ. . . اللحم لحم، وكأنه يوم مات بيرز.

وأخيراً، عام 1859، وبناء على طلب أرملته، التي كانت قد أصبحت السيدة ماكنزي، تقرر نقل جسد بيرز إلى «فورت سيمبسون» ودفنه هناك. ولا نعرف إذا كانت روحه القلقة بسبب دفنه في مكان لا يريده، قد أزعجت أرملته التي تزوجت من خلفه.

ولكن السيدة ماكنزي وزوجها كانا مصممين على إرسال الجثة، وهناك أسباب جيدة تدفعنا للاعتقاد أن أوغستس بيرز الراحل، كائناً من يكون، كان يتوق لأن تقوم جثته المجلدة برحلة خمسماية ميل فوق نهر ماكنزي الكبير المتجمد إلى «فورت سيمبسون».

وهكذا، استخرجوا جثة بيرز، ووجدوه كما كان عندما دفن منذ سنوات وتقرر إرسال الجثة جنوباً إلى «فورت «سيمبسون» على زلاجات تجرها الكلاب خلال أشهر الشتاء.

ووضع الجسد في نعش كبير وجديد، وربط إلى زلاجة، وبدأت المجموعة سيرها في أوائل أشهر سنة 1860، يجر النعش، ثلاثة كلاب، وفي الزلاجة الأخرى الفُرش والتموين.

وعلى الرغم من ثقل النعش، فقد تمت أول مرحلة من الرحلة دون حادث. وقبل الوصول إلى فورت نورمان، أخرجت الجثة من النعش وربطت بثياب دفنها فوق الزلاجة، فقد أصبحت الطريق تعبر كتلاً من الثلج المتدهور على نهر ماكنزي، وحمل الجثة في نعش ثقيل سيكون أمراً مستحيلاً.

في الخامس عشر من آذار، وهو الذكرى السابعة لموت بيرز، كانت الفرقة تستعد للتخييم قرب ضفة النهر. . . وكان يوماً رائعاً، دافيء على غير توقع في مثل ذلك الوقت من السنة، وبدأ لحم الجثة على الزجلاة يذوب، وتنشقت الكلاب الجائعة رائحة اللحم لأول مرة. . . بالنسبة لهم أنه لحم طازج. . . والوقت وقت الطعام. وهذا ما يفسر القيام بتلك الرحلة خلال الشتاء. فالحرارة فوق درجة التجلد شائعة خلال أشهر الصيف هناك. وسيذوب تجلد الجثة خلال الرحلة الطويلة إلى الجنوب. . . وأخذ

النباح الضعيف يدوي حول الجثة الصامتة، بينما كانت الفرقة تحضّر المخيم. . . وهو وقت تكون فيه الكلاب منتظرة بفارغ صبر أن تأكل.

وبينما كان أعضاء الفرقة يستديرون ليستطلعوا سبب الضجة، حتى سمعوا كلمة: «مارش!» بصوت مرتفع. . . فصمتت الكلاب فوراً. ولم يكن أحد من أفراد الفرقة قد تكلم، وليس هناك أي كائن بشري من حولهم على بعد مئات الأميال.

أحد أفراد الفرقة ممن عرف بيرز قال أن الصوت يشابه صوته تماماً. وكلمة «مارش» فرنسية تستخدم في الشمال الغربي القطبي لجعل الكلاب تتحرك أو تبتعد. . .

وسمعت كلمة «مارش» ثانية بعد ثلاثة أيام عندما كانوا يحضرون المخيم. وهذه المرة كانت الحرارة تحت درجة التجمد بكثير ولا مجال أن

تكون الكلاب قد اشتمت رائحة الجثة. وهكذا جذب نداء «مارش» انتباه الفرقة، وقرروا لسبب ما تحريك زلاجة الجثة عن مكانها إلى مكان أقرب للمخيم.

وفي الصباح، وجدوا آثار الذئاب في المكان الذي كانت الجثة فيه أولاً. وما من شك أن الذئاب كانوا سيمزقونها إرباً لو بقيت في مكانها.

في 21 آذار عام 1860 وصلت جثة أوغستس ريتشارد بيرز أخيراً إلى فورت سيمبسون بسلام ودون أن تمس، ودفنت في مقبرة هناك بعد يومين.

واهتم أعضاء الفرقة بتجربتهم خلال تلك الرحلة الغريبة، وكل رواية لهم توافقت مع الأخرى... فكلهم سمعوا الصوت الغامض، يخرج في المرتين من جهة الزلاجة التي تحمل الجثة، وفي وقت ليس فيه مخلوق حي في أي مكان قريب. وبدا الصوت يشابه تماماً صوت الميت.

وكان رودريك ماكفارلين، الذي قاد الرحلة، مقتنعاً، أن روح بيرز ونسبة للمشاعر التي كانت له حول المكان الذي يريد دفن جثته فيه، قد حرسته خلال الرحلة الشتوية الصعبة عبر نهر ماكنزي المتجمد، وعلمت أن الكلاب الجائعة قد اشتمت رائحة لحمه في تلك الأمسية الدافئة. وإنها علمت أيضاً بوجود الذئاب، وهي الحيوانات الشرسة المدمرة والتي من المؤكد أنها كانت ستمزق الجثة.

* * *

قصة حياة وموت «جورج وودفالد» هي من أغرب القصص التي وصلت إلينا من قارة أوستراليا. والتفاصيل هي قطع من تصريحات «وودفال» بنفسه، وروايات من رجال وجدوا جثته في ظروف هي الأغرب والأكثر خرقاً للطبيعة.

جورج وودفال رجل إنكليزي من عائلة طيبة، هاجر إلى أوستراليا

حوالي عام 1850 سعياً وراء الثروة... بعد خسارته كل ماله في إنكلترا.

في شباط «فبروري» عام 1851 إكتشف منقب ذهب يدعى هارغريفز الذهب في «سمر هيل كريك»، التي تبعد مئة ميل أو أكثر إلى الشمال الغربي من سيدني. وكان وودفال من أوائل المهاجرين المنقبين عن الذهب الذين لحقوه.

وانضم وودفال لإثنين من الرجال... هاربر وفريست... وكلاهما ذو شخصية جافة... وكان هاربر وصل أوستراليا قبل سنوات على مركب محكومين... ولكن لا هو ولا «فريت» كانت أطباعهما سيئة حقاً. فحياة الاستكشاف تجلب الأفضل كما تجلب الأسوأ في الرجال.

وتوقعات الذهب، هي الأكثر احتمالاً بأن تجلب الأسوأ. وبالتأكيد جلب هذا آلاف من غير المرغوب بهم إلى أوستراليا، أمام قلق السلطات.

وما من أحد، وبالتأكيد ليس وودفال، تظاهر أن لهاربر وفريت ماضٍ لم يكن ملوناً بالأسود، ولكن لا يستحقان المعاملة التي عاملهما لها وودفال... الرجل المتعلم والسيد الإنكليزي.

ولم يكن هاربر ولا فريت يعرفان كيفية كتابة إسمهما، ومع ذلك كانا رفيقان طيبان لوودفال، واستقبلاه بترحاب عندما دخل إلى مكان الحفر، وتقاسما معه... كما اعترف بنفسه... بعدل وإنصاف كل شيء.

وألف الثلاثة فريقاً واحداً أخذ يكشف عن الذهب... فيما بينهم كانت الأمور على ما يرام. يسافرون معاً إلى الجبال، يستكشفون، يحملون معهم الذهب، تبراً وقطعاً، وأصبحوا أصحاب ثروة ذات قيمة... ومن دون شك أصبح مع كل منهم ما يجعله يعيش حياة مرتاحة محترمة. ولكن المغامرين لا يكتفون أبداً... فالذهب يخلق فيهم نوع من الحمى لا يمكن إرضاءها أبداً. فرغبوا بالمزيد والمزيد.

كانوا يتكلمون عن العودة إلى سيدني، وبيع ما لديهم عندما اكتشفوا كهفاً عجيباً رائعاً في مكان بدا مقبرة للذهب في الجبل، يتدفق منه شلال رائع. وكان الدخول إلى الكهف صعباً، فقد وجدوا المدخل بعد تسلق خطير ومضني. وكان في مرتفع أفقي من الجبل، ولكي يصلوا إليه اضطروا لوضع أسافين من الخشب في شقوق الصخر الملساء.

وعندما وصلوا إليه وجدوا نقوشاً تشبه التماثيل كانت تردد صدى الرعد المتصاعد من تدفق المياه إلى مسافات بعيدة.

مشاعلهم أضائت أعمدة كلسية رسوبية متجمدة متدلية وكذلك متصاعدة من الأرض، ضخمة جداً، ولمعت فوق صخر متعدد الألوان منشوري الشكل. . . وكان أروع ما شاهدوه أعمدة ضخمة من الصوان تدعم السقف.

ولكن هذا المكان الرائع الإلهامي تنازل عن أبهته أمام الذهب. فالصوان على رغم منظره الجميل لم يكن يحمل الكثير من الذهب.

ولكي يحصلوا على الذهب كان عليهم أن يقطعوا في شكل صخري يشبه واحداً من تلك الأشكال الصنمية في الكاتدرائيات. . . ومن خلفه وجدوا كهفاً أصغر.

وبعد التفتيش عن الذهب دون طائل في ذلك المكان الغريب الرائع قرروا إمضاء الليل في الكهف الصغير، قبل عودتهم إلى رحلتهم نحو سيدني.

كان الكلام تلك الليلة يدور حول خطة الرجوع إلى المدنية. واحتسب كل منهم قيمة ذهبه، وتوصلوا إلى نتيجة أنهم قد أبلوا بلاءً حسناً. واعترف كل منهم أنه سيحصل على حياة مرتاحة رغيدة في المستقبل. فقد اكتفوا من خشونة الحياة، ويريدون التمتع بحلاوة التمدن، الأمر الذي يوفره الذهب لهم.

ويطول الحديث ليخوض في حياة سيدني، الأوقات المجنونة للأيام الأولى، ولكن جورج وودفال بقى صامتاً. فقد كانت أفكاره تجري في طريق مخالف تماماً لأفكار رفيقيه. فلهم، حصتهم بالذهب تكفيهم، ولكن ليس بالنسبة له. لقد جاء إلى أوستراليا ليعبد بناء ثروته، ولن يكتفي بالنوع من المال يعتبره هذان المنقبان ثراء. فكل مجموع الذهب لا يمثل سوى مبلغ محترم من المال، وبهذا الرأسمال، كان مقتنعاً أنه سيجني الأكثر.

ولكن هناك أمل ضئيل في أن يسرق رفيقيه وينجوا بالذهب. فسيصبح رجلاً موصوماً. وهذا أمر لا يغتفر ولا ينسى.

هناك حل واحد. . . أن يقتلهما. . .

وغط هاربر وفريت سريعاً في النوم. . . واستلقى وودفال صاحياً يخطط لجريمته. يجب أن تتم بسرعة. وقبل أن تخمد النار التي أشعلوها في الكهف.

وانتظر وودفال إلى أن انخفضت النار، ثم ضرب بسرعة وفجأة بحد سكينه المشحوذ كالموس. . . أولاً فريت، الأقرب إليه. . . وأصابه بضربة واحدة اخترقت قلبه.

ومع أن فريت مات في الحال ودون ضجة، فقد استيقظ هاربر على الفور، تلك الحاسة السادسة التي يتساءل الرجال غالباً عنها وهم يعيشون في البراري، والتي تنذرهم على حين غرة.

ووقف هاربر على قدميه، ورمى بنفسه قافزاً على وودفال. ولكن هاربر كان لا يزال نصف نائم، وودفال لم يجد صعوبة في التعامل معه. فأمسك بعنقه وأخذ يمزق حنجرته، ووقعا أرضاً، يتقاتلان بوحشية، ووقعت سكين وودفال في القتال العنيف، ولكنه استعاد قبضته على خناق هاربر ووقع هاربر بحالة نصف إغماء.

فاستدار وودفال ليلتقط سكينه وتقدم من رفيقه ليجهز عليه.

وقاوم هاربر ليجلس، ووجهه يشع وعيناه بارزتان، وفمه مفتوح وهو يشهق... لم يكن قادراً على الكلام، فقد كان شبه مخنوق... ونظر إلى وودفال يائساً، وضم يداه طلباً للرحمة.

ولكن وودفال لم يعطه الرحمة، فقد ذهب بعيداً ولن يتراجع، وغرز سكينة عميقاً في صدر هاربر... ومات هاربر بصيحة متحشرجة مخيفة، تردد صداها مرات ومرات عبر قناطر الكهف الكبير.

وقرر وودفال أن يترك المكان في الحال، مع أن الوقت كان ليلاً. فجمع الذهب من رفيقيه، ولكن منظرهما مذبوحان دون شفقة بيده، كان أمراً كبيراً على ضميره، فقرر دفنهما... وهذه أفضل طريقة لطمس الجريمة.

ولكنه وجد الحفر في التربة القاسية أمراً صعباً بل كان الأمر نحتاً أكثر منه حفراً. وبعد أن حفر حفرة ضحلة، تخلى عن فكرة الدفن. فعلى كل الأحوال، من غير المحتمل أن يكتشف أحد الكهف في هذه البقعة الجميلة النائية. وإذا تم اكتشافه فلن يكون له صلة بجثتي فريت وهاربر.

وهكذا وضع جثتهما في الحفرة الضحلة التي حفرها وغطاهما ببعض الصخور، وتركهما ليذهب إلى سيدني.

وكان هذا يوم العشرين من أيلول عام 1852 أو 1853. ولم يكن أحد يعرفه في سيدني، التي كانت في تلك الأيام مسكونة بمئة ألف نسمة، بالمقارنة بالميونين الآن. وكانت مكاناً كبيراً بما يكفي لجورج وودفال أن يبقى غير معروف نسبياً. وقال للجميع أنه وصل مؤخراً من إنكلترا مع كمية متواضعة من رأس المال يرغب في استثماره.

وعندما لاحت له المناسبة، ركب وودفال الموجة. بنفس الطريقة التي

خاطر فيها في الكهف عندما سرق وقتل رفيقيه. وهكذا استثمر تقريباً كل ما معه في مناجم «بينامبرا» وبعد أسبوع ارتفعت أسعار الأسهم وأصبح رجلاً ثرياً جداً.

وكان وودفال سعيداً بنجاحه حتى أنه نسي جريمته وأخذ يمتع نفسه، فاشترى منزلاً فخماً في ساحة «بويتس» حيث تمتع بحياته بفخامة ولكن بحكمة.

وعاد شهر أيلول مرة أخرى... وفي إحدى الأمسيات، حوالي منتصف الشهر، كان يجلس وحيداً قرب نافذة مفتوحة في منزله يحدق عبر المياه المظلمة لميناء «جاكسون» وإلى أضواء الميناء والسفن، عندما عاد به الفكر باستعادة مريرة لما فعله... وتمنى لو أنه يستطيع التخلي عن كل هذا الثراء ليغسل الدم عن يديه. وفي ظل هذا المزاج أحس بدافع قوي لأن يركض إلى البوليس ويعترف بجريمته.

ولكن ذلك المزاج تلاشى، واستدار عن النافذة، وهو يقول لنفسه أن الأموات لا يمكن أن يرددوا القصص.

وهو يستدير إلى الغرفة سمع صوتاً يقول بوضوح:

ـ لقد آن الأوان... فلنبدأ!.

وظن في البداية أن لصوصاً دخلوا منزله، فأخرج مسدسه وبدأ التفتيش. ولكن، لم يكن هناك أي دخيل حول منزله، أي ما من دخلاء من هذا العالم... وأطفأ وودفال الأنوار، وأخذ يتحضر للنوم... والتقط الشمعة وتقدم نحو باب غرفة الجلوس.

ولم يكد يخطو خطوة، كما قال، حتى هبط شيء وكأنه الجثة الثقيلة عند قدميه، وبينما هو يتراجع بخوف حتى بدأ يسمع أصواتاً... أصوات لاحقته لأشهر، ولكنها الآن انفجرت بشكل مرعب في أذنيه.

سمع صدى الشلالات من بعيد، ثم جائت آخر صيحة أطلقها هاربر وهو يموت وسكين وودفال تغرز عميقاً في صدره، لتثقب طبلة أذنه. ثم أصوات أخرى كذلك، مرعبة، لا يمكن وصفها كانت تهز المنزل ويتردد صداها فيه.

وغاص في مقعد، وغطى أذنيه بيديه لمحاولة إبعاد الأصوات الشبحية. ولكنه لم يستطع. وكأنه عاد إلى الكهف، في تلك الليلة الرهيبة، في كابوس حي تملك كل حواسه.

وكان يتوقع أن يستيقظ خدمه في أية لحظة بسبب الأصوات المريعة المرعبة التي تتصاعد بين برهة وبرهة في تضخيم لصرخة موت هاربر التي لا يمكن له نسيانها.

ولكن، ما من أحد في المنزل تحرك. وأدرك بعد قليل، إنه الوحيد الذي يسمع تلك الأصوات، تلك المعزوفة الشيطانية، كما سماها.

وعندما أدرك هذا... توقفت الأصوات... ثم، وبوضوح وكأنه يقف إلى جانبه، سمع صوت هاربر:

ـ لقد ازداد نسيانك يا جورج... بعد أسبوع سيحل تاريخ العشرين من أيلول (سبتمبر) ونحن هنا لنذكرك!

وكان جورج وودفال قد أصبح الآن في حالة من الرعب المطلق. وأصبح كذلك مقتنعاً من وجود ليس فقط هاربر بل فريت أيضاً في الغرفة معه. ولكن هاربر هو من كان يتكلم، هاربر الذي كانت صيحة موته لا تزال صدى حي في ذهنه:

ـ وقت موتك لم يحل بعد يا جورج، ولكن قبل أن يحل سوف نعلمك أن تتذكر. نحن نتوقع قدومك إلى الكهف في العشرين من الشهر. لا تنسى... فبهذه الطريقة فقط يمكنك النجاة منا.

وتمتم وودفال برعب:

ـ أجل سأجيء...

وتوقف عن الوعي.

حلم؟... كابوس صحوة سببه ضميره المعذب؟

في مطلق الأحوال... ذهب وودفال إلى الكهف، وهناك أمضى، كما قال: «ليلة من الرعب الرهيب، تساءلت بعدها كيف إنني عدت إلى الحياة وإلى العقل ثانية».

وما حصل في ذلك الكهف، يمكن تخيله فقط. ولكن من غير المحتمل أن يكون وودفال أجبر نفسه على لمس جثتي الرجلين الذين قتلهما ووضعهما في الحفرة الضحلة. وهذه نقطة مهمة على ضوء ما حدث فيما بعد.

وأصبح كل سنة يقوم بهذا «الحج» الرهيب إلى الكهف،ليمضي ليلة كاملة في نوع من الصلة الحميمة مع ضحيتيه، الذين تتمدد جثتيهما مهترئة في الحفرة. كل سنة تتحول إلى الاهتراء أكثر، وإلى بروز العظم أكثر، ولكن وبطريقة خارجة عن الطبيعة... إحياء.

ولكن بذهابه فقط إلى هناك كل سنة يتركانه بسلام... وبعد السنة الرابعة، حاول أن لا يذهب. ولكن ما من مجال للتهرب من «الحج» المقيت.

فقد جاء هاربر وفريت يطاردانه في ساحة «بوتس»... ويسوقانه إلى الكهف لإتمام الطقوس السنوية المرعبة.

وكان لهذه التجربة أثراً مفيداً واحداً على وودفال... فقد غيرت حياته كلها. فتوقف عن كل أنواع المسرات والمرح. وحاول التعويض عن ذنبه بالأعمال الطيبة. وأخذ يهب المحتاجين، ويذهب إلى الكنيسة بانتظام.

وأصبح أحد أكثر سكان سيدني احتراماً.

ولم يكن أحد ليحلم بأنه مجرم، فقد أبقى سره مسجوناً في داخله. ولسبب ما لم يكن يستطيع الاعتراف بما فعل... كان عاجزاً تماماً عن هذا. ولو أنه فعل... فهل سيتركه هاربر وفريت وشأنه بسلام؟.

وبعد عشرين سنة من المطاردة البائسة، وبعد تسعة عشر زيارة إلى الكهف الرهيب... قرر أخيراً أن يعترف.

في إحدى الليالي كتب كل شيء... وختم اعترافه بالقول أنه سيقوم «بالحج» مرة واحدة بعد إلى الكهف... لأنه يشعر بأن هذه الحجة يجب عليه القيام بها. ثم سيعود ليستسلم.

وهكذا ذهب في آخر رحلة «حج» له، ولكنه لم يعد.

وحزنت سيدني على غياب مواطن مستقيم ومن أهل الخير، الذي كان اختفاءه مثيراً وغامضاً. ولم يشك أحد بشيء مريب. فكل أموره وشؤونه كانت في أحسن ترتيب. وافتقد كثيراً... وأخيراً أقاموا له تمثالاً.

وبقي اللغز دون حل لخمس سنوات.

في أواخر عام 1870، كان رجلان يقضيان إحدى تلك العطلات المثالية، المليئة بالنشاط التي كانت تجري في القرن التاسع عشر، هما ويليام راولي المهندس الشاب الذي خطط للعديد من القنالات في نيوساوث ويلز، والكاهن تشارلز باور من كنيسة سانت كريسوستوم في سيدني. كانا يخيمان ويسافران في براري الجبال الزرقاء ويعيشان على لحم الطرائد التي كان يصطادها راولي ببندقيته... الكاهن باور كان يوظف نشاطه بالتقاط الفراشات لمجموعته الأوسترالية الضخمة.

وكلاهما كان يعرف جورج وودفال بالسمعة والشخصية. في العشرين من أيلول أطلا على جبل يتدفق منه شلال رائع الجمال. وأقاما المخيم

هناك لقضاء الليل، مسحوران بفتنة وجمال المناظر، ومذهولان بجمال الشلال. وبالطبع دون أن يعلما أن هذا اليوم هو الذكرى السنوية لحادث مفزع محدد.

بعد العشاء، بينما كانا يدخنان غليونيهما قرب نار المخيم، وحدثت عاصفة رعدية ظهر خلالها، ربما بخدعه غريبة للبصر، وهج أحمر بلون الدم على وجه مياه الشلال، حتى أنه بدا لهما وكأنه سيلان للدم.

ونظرا إليه وكأنه ظاهرة طبيعية غريبة، ولكن عندما مرت العاصفة بقي الوهج الأحمر فوق مياه الشلال، وفي منتصف المياه تماماً، كما بدا لهما، ظهر طيف رجل.

وسارا نحوه يتعثران في الظلام، ثم توقفا، مسمرين مكانهما، فقد شاهدا أن للرجل وجه ميت منذ زمن بعيد، واللحم جاف ومنكمش وفي بعض الأماكن مختفٍ تماماً... كان على الأرجح هيكل عظمي، شيء من الظلمات الخارجية... وبدا مسمراً هناك وسط نور قرمزي ساطع، وبالتناوب، كان يومي إليهما ثم يتلوى وكأنه يتألم.

واستغرقهما التسلق إلى تلك البقعة التي كان الشبح فيها ساعة ونصف، ثم ساعة أخرى ليبلغا القمة حيث يتدفق الشلال من الفجوة... وكان شفير الجرف مخيفاً والجبل فوقهما شامخاً وهما يقفان في الليل.

وتسلقا إلى أعلى، فوجدا شجرة مقطوعة ومسلوخة اللحاء بواسطة فأس ومحفور عليها سهم يتجه إلى الأسفل.

وبالقرب منها وجدا مدخل الكهف، وقد نمت عليه الأشواك. وقطع راولي غصناً وبدأ يضرب العشب الكثيف، ليكشف عن فم الكهف الذي كان يقود بشكل عامودي إلى الأسفل.

وكانت الأوتاد الخشبية التي وضعها وودفال ورفيقه منذ خمس وعشرين

سنة لا تزال في مكانها وقوية آمنة كما كانت. وأضاء راولي وباور مصابيحهما الكشافة وأخذا بالنزول. . .

وبعد دقائق كانا يقفان بذهول وسط محفورات الكهف التي تشبه مداخل الكاتدرائيات. . . تشكيل الصخرة الضخمة كان يشبه المذبح، مما أثّر على الكاهن باور وأثار اهتمامه. وبينما كان يحدق فيما حوله بإعجاب دخل راولي عبر صخر الصوان المكسور إلى الكهف الأصغر وراءه.

وجلبت صيحة الرعب التي صدرت عنه باور راكضاً إليه. وسأله رجل الدين:

ـ ما الأمر؟.

وأجاب راولي وهو يرتجف:

ـ هيا بنا نذهب من هنا. . . فهذا المكان ليس لنا.

ـ لأجل السماء! ما الأمر؟.

وأضاء راولي المنظر بمصباحه الكاشف.

وأمامهما ظهر القبر المفتوح الضحل. التراب الذي خرج منه عند حفره والمكدس إلى جانبه أصبح صخرياً بسبب التساقط الذي لا يتوقف لنقط المياه من فوق. حتى الأدوات التي حفر بها القبر كانت لاتزال حيث هي.

ولكن ما أثار رعبهما أكثر، كان الهيكل العظمي لرجل، يرتدي قميصاً مشمراً وبنطلوناً أصبح أسمالاً مهترئة، وهو نصف جالس إلى حافة القبر، يحدق فيه، يضحك بطريقة لا يمكن سوى لجمجمة أن تضحك مثلها.

وفي القبر نفسه هناك جثتان، إحداهما فوق الأخرى. العليا هيكل عظمي يشابه الجالس إلى جانب القبر. . . وتحته جثة رجل في آخر مراحل التآكل. مع أنه كان واضحاً أنه لم يمت لزمن يوازي الآخرين.

وكان لجثة الرجل الذي في الأسفل شيء مألوف غير اعتيادي للرجلين المفزوعين الذين وقفا يحدقان بالقبر. وعندما مد راولي عصاه وأزاح الهيكل العظمي العلوي، لاحظا أن الرجل الذي تحته هو الرجل الذي ظهر لهما فوق الشلال بعد العاصفة الرعدية.

وأحس الرجلان بالحيرة والرعب لاكتشافهما، وكان هناك شيء غير عادي، غير طبيعي. . . حول الأمر كله. . . في وضعية الجثتين اللتين في القبر. . بعيداً عن الظهور في المياه المحمّرة كالدم.

واقع أن جثتان كان واضحاً أنها ميتتين منذ وقت أطول بكثير من الثالثة حيّر راولي وباور. فكيف يمكن أن يكون رجل هو الأخير في الموت وبشكل ظاهر، هو الذي يرقد تحت الرجل الذي مات قبل سنوات طويلة منه؟

من وجهة نظر الكاهن تشارلز باور كان هناك عمل شيطاني في الأمر. . . شيء فيه رائحة الجحيم.

ونظرا حولهما في الكهف ليجدا معطفاً قديماً، تمزق إرباً بفعل الزمن. ولكن كان واضحاً أنه فاخر التفصيل والقماش. وكان عليه «ماركة» «سكالون» أحد أفضل الخياطين في سيدني. وفي المعطف وجدا علبة معدنية مسطحة، تحتوي على إسم: «جورج وودفال، بوتس بونيت، سيدني». وهكذا حصلا على جواب للغز. ففي داخل العلبة وجدا اعترافه حول كيفية قتله لهاربر وفريت لسرقة ذهبهما، ثم كيفية عودته إلى مكان جريمته كل سنة مدفوعاً بقوى شريرة خفية لم يستطع مقاومتها.

الجواب على اللغز؟. . . إنه فقط جزء بسيط من الجواب. ففي اعترافه قال وودفال أنه سيذهب لآخر مرة إلى الكهف وهي المرة العشرون، بعد أن كتب اعترافه. ثم سيسلم نفسه. ولكنه لم يعد من الكهف. . . فكيف قتل؟

في الأصل. . . كان قد مدد جثتي هاربر وفريت في القبر. . . وهناك بقيا تسعة عشر سنة وأكثر. . . وهكذا كان يجدهما بعد كل زيارة رهيبة يقوم بها إلى مكان ذكرياته المخبئة. في «الحج» العشرين وبعد أن كتب اعترافه: هل وصل إلى هناك ليجدهما جالسان على حافة القبر ينتظرانه. . . وهما يعلمان أنه قد استسلم أخيراً لسيطرتهما؟

ودفن باور ورايلي الجثث الثلاثة في الكهف، وقرأ باور عليهما صلاة الجنازة.

ولم يستطع رجل الدبن أن يفهم أبداً لماذا استسلم وودفال، وقد اعترف بجريمته، إلى قوة وسلطة أرواح الظلمات. . . ولكنه آمن وبكل حزم أن خطواته وخطوات رايلي قد وجهتا خصيصاً إلى الكهف للكشف عن اعتراف وودفال، ولإعطاء الجثث الثلاثة دفناً دينياً لائقاً. . . كي ترتاح أرواحهم المعذبة في سلام أبدي.

وفوق قبر بقاياهم جمع رايلي كومة من الحجارة الصوانية التي تحمل الذهب.

الأشباح المشعّة

أولاد الإشعاع هم نوع معين من الأشباح. فهي أرواح أطفال قتلتهم أمهاتهم. . . . وعملهم التقليدي هو تحذير من يظهرون له بنهاية عنيفة لحياتهم تتهددهم.

ومع أن الكثير منهم تروى حكايته في التقاليد الألمانية للأشباح، حيث يسمون «كيندر مورديرن» إلا إن الروايات التقليدية الإنكليزية للأرواح تحتوي على أمثلة واضحة عن هذا النوع. ومن المقترح أن يكون وجودهم قد أتى أصلاً مع المهاجرين السكندينافيين والأوروبيين الشماليين الذين استقروا في إنكلترا في القرن التاسع والعاشر، حاملين معهم رواياتهم الخرافية التقليدية.

هذا التفسير من الممكن أن يكون مقبولاً لواحد من أشهر أشباح الأطفال المشعين في إنكلترا، والذي بقي يطارد قصر «كوربي» المستقر فوق تلة مشرفة على غابة كثيفة على ضفتي نهر «إيدن» في «كومبرلاند» حتى السنوات الأولى من القرن الماضي.

عائلة هوارد كانت المالكة، ولسنوات عديدة، لقصر «كوربي». وفي هذه الأيام يحافظ القصر على طابعه القديم للقرن الثامن عشر كما كان. ولكن موقعه كان يعود إلى عدة مباني أثرية قديمة تحولت بنجاح إلى ما كان عليه في ذلك الوقت. أول هذه المباني القديمة برج أثري بناه الرومان كجزء من دفاعاتهم ضد غزوات البيكتس والسكوتش، وهذا البرج تحول في العهد النورماندي إلى قصر ولكن باندثار العهد النورماندي بقي البرج كما هو بأسواره السميكة التي تبلغ من ثمانية إلى عشرة أقدام أي حوالي الثلاثة أمتار. وبقي السلم الحجري اللولبي يشكل جزءاً مما يدعى حالياً بالقصر.

الغرفة التي سكنتها روح الولد المشع (أو المضيء) كانت تقع في الجزء العتيق من القصر المتصل بالبرج الروماني. نوافذها تطل على باحة داخلية للمكان. لذلك كانت غير بعيدة ولا منعزلة، بل محاطة من كل جوانبها بغرف كانت تستخدم بصورة مستمرة.

كان الوصول إليها عبر ممر قطع في جدار سمكه ما لا يقل عن مترين ونصف، قياسها خمسة أمتار ونصف. بثلاثة أمتار ونصف تقريباً (2.1 قدماً × 18 قدم). في بداية القرن التاسع عشر كانت تستخدم كغرفة نوم، ولكن كمكتبة فيما بعد. وعندما تحولت إلى ما هي عليه، نقل المالك يومها الفراش واستبدل الأثاث القاتم الأثري الثقيل، بقطع مفروشات حديثة... وبعيداً عن هذا، على كل، بقيت الغرفة كما كانت من قبل لسنوات طويلة.

أحد جدران الغرفة كان مغطى بالقماش المزين بالنقوش المشابه للسجاد، والجدران الأخرى علق عليها صور عائلية وبعض قطع «الأوبيسون» اشتغلتها الراهبات باليد كما يُعتقد. فوق خزانة لها أبواب بزجاج فينيسية مضلعة، كان يوجد منحوتة خشبية لشخص قديم وفي يده

فأس حربية. وهذا التمثال كان واحداً من عدد من التماثيل التي كان يضعها المواطنون الإنكليز في «كارليست» على أسوار مدينتهم لإعطاء انطباع لمن يمكن أن يفكر بالغزو أن هذه المدينة الحدودية محروسة جيداً.

المالك كان يرجوا بنقله الأثاث واستبداله بآخر حديث أن يغير من «جو الكآبة التي اعتقد بأنها تسبب بتصاعد ما لا حصر له من تقارير الظهور والأصوات غير المألوفة التي كانت تصل إلى مسامعي ولكن لسوء الحظ لم أستطع النجاح في إبعاد الزائر الليلي» كما ورد في مذكراته.

آخر ظهور لولد «رادينت» المضيء كان في أوائل أيلول عام 1803، وبدا أن الولد يتصرف بشكل متعمد، فالرجل الذي ظهر له لم يتعرض إلى أي كارثة. وفي الواقع، كان ذلك الرجل لا يزال بعد عشرين سنة من ذلك الظهور، يتناول طعامه خارج المنزل وهو يسرد مدى قوة تلك التجربة على أعصابه.

يومها أقيمت حفلة في القصر، وكان بين الضيوف كاهن «غريستوك» وزوجته... وكانت حفلة ضخمة، واستخدمت كل غرف النوم في القصر. وخلال توزيع الغرف على الضيوف، عينت السيدة هوارد، صاحبة القصر، تلك الغرفة المطلة على الباحة الداخلية للقسيس وزوجته، وفعلت هذا دون قصد أو نية، لأن تفكيرها كان خالياً بالمرة من أي تفكير بشبح الولد.

صبيحة اليوم التالي لوصولهم، جلس الضيوف إلى مائدة الإفطاء مع مضيفيهم في غرفة الطعام، واستدعى انتباه الجميع فجأة الفوضى التي حدثت في الطريق الداخلية الموصلة إلى القصر في الخارج. إذ تقدمت عربة ذات أربع عجلات بسرعة نحو الباب بدا معها أن السائق لاقى صعوبة في السيطرة على الجياد، فقد صدمت العربة جزءا من

السياج الذي يحمى مساكب الزهور على جانبي الطريق. وصاح السيد هوارد متسائلاً «من هو القادم الينا في مثل هذه الساعة المبكرة؟ يبدو من سرعة السائق أن عربته تحمل أشياء مهمة، أرجو أن لا يكون من فيها مريضاً» وابتسم لزواره.

وهو يجيل بنظره حول الطاولة لاحظ أن كاهن «غريستوك» أصبح قلقاً بإفراط. وللحظات لم يستطع الكاهن أن يتكلم، ولكن ما أن توقفت العربة عند الباب في الخارج حتى تمكن من أن يقول «لا أتوقع منك أن تسامحني يا سيدي، ولكن هذه عربتي. لقد استدعيتها عند طلوع الضوء تماماً. وأخشى أن يكون على المغادرة فوراً... هيا بنا يا عزيزتي»...

فصاح السيد هوارد بدهشة «ولكن يا محترم! هل وصلتك أنباء سيئة؟ هل هناك شيء يمكننا أن نساعدك به؟».

ورد عليه الكاهن «لا شي يا سيدي... ما عدا أن لا تحاول ردعنا عن الخروج».

وقالت السيدة هوارد «ولكن لا بدأن هناك أمر خاطيء يا سيد... هل سببنا لك الإهانة بطريقة ما؟ إذا كان الأمر كذلك، فنحن آسفان جداً وسنفعل كل ما باستطاعتنا لتعويض ما حدث».

ورد عليها الكاهن بحرج متزايد بعد بدأ الحضور ينظرون إليه وإلى زوجته بصمت وارتباك «لا... لا، لا يا سيدتي لقد كنت أكثر من لطيفة معنا».

فسأله هوارد «فلماذا إذاً تريد المغادرة؟ كنا ننتظر أن ترافقنا لبضعة أيام... أضف إلى هذا أن الكولونيل والسيدة زوجته سيحضران إلى العشاء الليلة خصيصاً للقائك. أرجوك غيّر من رأيك، وكن لطيفاً وأرسل العربة إلى حيث كانت».

فرد الكاهن «أنا حقاً آسف يا سيدي... أنا أدرك أننا إنما نخاطر

بخسران صداقتك ولطفك بتجاوبنا مع دعوتك وضيافتك بهذه الطريقة، ولكنني أتوسل إليك أن لا تضغط علينا أكثر للبقاء، وأن تتركنا نذهب».

فأصر هوارد قائلاً: «كيف يمكننا ذلك إلا إذا أخبرتنا ما هو الخطب إذ من الواضح أن هناك أمر ما؟».

ووقف الكاهن بتثاقل على قدميه، وفعلت زوجته مثله بصمت وهي تبكي... وقال الكاهن بصوت مرتجف قليلاً «سامحونا» وترك طاولة الطعام.

وتأثرت السيدة هوارد بحزن زوجة الكاهن الواضح... فلحقت بها محاولة تهدئتها قائلة «لو أنكما فقط تقولان لنا...».

ونظرت زوجة الكاهن إلى زوجها، ولكنه هز رأسه وتمتم «ربما فيما بعد... ولكن ليس الآن».

وكان خدم القصر وخادم الكاهن قد فرغوا من تحميل حقائب الزائر في العربة، فمد الكاهن يده إلى السيد هوارد في محاولة أخيرة للاعتذار، ولكن مفاصله وصوته خاناه، فاستدار فجأة لينحني للسيدة هوارد، ثم يسرع إلى عربته، حيث ساعد زوجته على الصعود... وبعد لحظة كانت العربة تسير بسرعة عبر الطريق.

وعاد السيد والسيدة هوارد إلى ضيوفهما وهما يشعران بالارتباك والألم، ليجداهم يتناقشون بالتصرف الغريب فيما بينهم... وما إن جلس هوارد حتى سأله أحدهم: «هل قال لك شيئاً في الخارج؟».

وهز هوارد رأسه وقال: «ولا كلمة واحدة... ولقد حاول المحترم أن يؤكد لنا أن ما من شيء فعلناه هو السبب في مغادرتهم الفجائية... ولكنني لست بواثق من كلامه».

وكما كتب فيما بعد في مذكراته قال: «لقد غادرا، وتركانا في رعب

نخمن ما يمكن أن يكون قد سبب مثل هذا التصرف المفاجيء لخططهما. لقد شعرت حقاً بالاضطراب تماماً خوفاً من أن يكون أي شيء قد حصل ليغضبهما، وراجعنا كل ما حصل في الأمسية السابقة كي نكتشف إذاً ما كان هناك من إساءة غير مقصودة. ولكن كل معاناتنا ذهبت سدى، وبعد حديثنا بالأمر لعدة أيام، أزالت ظروف أخرى القضية من أذهاننا».

«الظروف الأخرى» التي أشار إليها كانت تسلية ضيوفه. وبعدما غادر الجميع، اكتشف أن تفكيره لا يزال مشغولاً بما حدث للكاهن. وليوم أو يومين حاول صرف المسألة عن أفكاره، ولكن كان عليه أخيراً أن يعترف بأنه لن يرتاح بالاً إلى أن يعرف الحقيقة. لذا قرر أن يزور «غريستوك» ويحاول إقناع الكاهن بمصارحته.

وفي «غريستوك» دهش وارتبك من حرارة حفاوة الكاهن به... وقال له هوارد وزوجته تقود الطريق أمامهما إلى غرفة الجلوس «لا بد أنك حزرت سبب زيارتي».

فأجابه الكاهن «بالطبع... ربما نستطيع الآن أراحة بالك ببرهنتنا لك بأن سبب مغادرتنا لقصرك بطريقة غامضة لا علاقة له بلطفك وضيافتك الممتازة. وأنا آسف لمغادرتنا بيتك بالطريقة التي فعلنا، ولكننا كنا معاً نرتجف من صدمة التجربة... تجربة أستطيع القول أن تعقلي ومهنتي معاً خرجت عن سيطرتي فيها...».

وما أن سمع هوارد تلك الكلمات حتى فهم أخيراً ما حدث... فصاح: «وهل شاهدت الولد المضيء!» وأحس فجأة بالضياع لعدم تذكره مثل هذا التفسير من قبل. ولكنه لم يكن يعلم أي غرفة كان فيها الكاهن وزوجته.

وصاح الكاهن بدوره «أتعني أنك تعرف بأن القصر مسكون بما وصفته تماماً لتوك بالولد المضيء، سيدي؟».

فاعترف هوارد: «هناك تقليد في قصر «كوربي» يقول أن مثل هذا الظهور يحدث من وقت لآخر... ولكننا، أي العائلة، كنا دائماً نشك بالأمر، فهو لم يظهر أمام أي من عائلة هوارد، بل للضيوف الزائرين للقصر. وهو لم يظهر منذ عدة سنوات، وأخشى القول أن الأمر لم يخطر ببالي أن يكون سبباً محتملاً لقطعك زيارتنا فجأة... وأنا واثق أيضاً، إن السيدة هوارد بريئة من هذا التفكير على حد سواء».

واعترض الكاهن بشدة: «يا سيدي العزيز! أؤكد لك أنني والسيدة زوجتي أيضاً لم تساورنا أبداً فكرة أنكما تعمدتما وضعنا في تلك الغرفة لأخافتنا».

وسأله هوارد: «هل يمكنك احتمال سرد ما حصل الآن؟» ورد عليه الكاهن: «يسعدني القول بأننا شفينا من الصدمة التي حصلت منذ زمن. ولكنني متردد في سرد ما حصل لأنني كرجل فكر وثقافة، والأكثر لأنني رجل دين، أحس بأن علي رفض كل المسألة واحتسابها محض خيال».

فقال هوارد: «وأنا أحس بما تحس به تماماً. ولكنني من ناحية أخرى أجد صعوبة في صرف النظر عن هذه الظاهرة التي يرفضها أي رجل عاقل. وأؤكد لك، أن سجل ظهور الأولاد المضيئين بين النساء اللواتي أعلنّ ظهورهم عليهن، هو ما بين هؤلاء اللواتي لا شك في حصافتهن وتعقلهن... وأعطيك كلمة شرف إذا أخبرتني بما رأيت، فلن أتفوه بكلمة مما تقول لأي كائن حي. فاهتمامي هو في مجرد مقارنة ما حدث معك مع السابقات».

ووافق الكاهن على طلب هوارد، بعدأن أحس بأن من السذاجة أن لا يوافق على طلب زائره. فقال: «حسن جداً يا سيدي... في هذه الحال سأخبرك: ما إن أوينا إلى الفراش حتى استغرقنا في النوم. ربما تكون الساعة قد بلغت الثانية صباحاً عندما استيقظت، ولاحظت أن النار قد

خمدت تماماً، ومع أن الحالة هكذا، وليس لدينا أي ضوء، فقد رأيت شيئاً مضيئاً وسط الغرفة، استحال بعد قليل إلى لهيب نار مرتفعة فنظرت بسرعة، ظاناً أن شيئاً يحترق، ولذهولي وجدت ولداً جميلاً يرتدي الأبيض، له خصلات شعر برّاقة تشابه الذهب، تقف إلى جانبي. وبقي هكذا لدقائق، يركز عينيه علي بتعبير لطيف ومحب. ثم تحرك بلطف نحو جانب المدخنة حيث من الواضح لا سبيل إلى الخروج واختفى تماماً. ووجدت نفسي ثانية في ظلام دامس، وبقي كل شيء هادئاً حتى ساعات الصباح العادية. وبعد أن اختفى مباشرة، عدت إلى وعيي فجأة. فقد بدت لي الرؤية حقيقية في ذلك الوقت إلى درجة إنني كنت أستطيع أن أمد يدي لألمسه. . . وأدركت أنه ليس بحلم، وإنني فعلاً قد شاهدت الولد، كما تسميه، وأنا في حالة صحو تام، مما جعل قلبي يكاد يتوقف عن الخفقان. وبدأت ارتجف بعنف حتى أن زوجتي استفاقت، وسألتني عما يجري».

وتدخلت زوجته لتقول: «إعتقدت أنه أصيب بالحمى، فقد كان يرتجف بطريقة لا مجال للسيطرة عليها. وعندما أكد لي أنه لا يشعر بالبرد اضطربت وضغطت عليه ليشرح لي سبب ارتجافه. ولكنه لبضع دقائق رفض».

وتابع الكاهن: ولكنني لم أستطع إبقاء الأمر لنفسي. كان علي أن أخبر زوجتي، مع إنني كنت أعلم أن هذا سيزعجها. ومثلي تماماً، لم تستطع العودة إلى النوم تلك الليلة. لقد كنت في حالة قلقة لدرجة أنني لم أستطع المخاطرة بتجربة أخرى ببقائي ليلة ثانية في تلك الغرفة. وكنا نعرف أن كل غرف قصركم مشغولة، وهكذا ما إن شق الفجر حتى نزلت إلى الطابق الأرضي وأرسلت أحد خدمك ليحضر عربتي. كنت أظن أن سائقي لن يستطيع الوصول إلى كوربي قبل انتهاء وجبة الإفطار، وصوله المفاجيء المثير بينما كنا لا نزال على المائدة، أفشل نيتنا في

التسلل بهدوء دون إزعاجك أو إزعاج ضيوفك. وأنا «أعتذر صادقاً للإحراج الذي سببناه لك لمغادرتنا بتلك الطريقة، ولرفضنا إعطاء السبب. ولكن كما قلت لنفسي يومها، كنت متأكداً أننا سنصبح أضحوكتين لو حاولت أن أشرح الأمر. وأخشى أن أكون فضلت بأن أوصف بعدم اللياقة والأدب على أن أتعرض لسيل من المزاح».

ورد عليه هوارد: «أفهم هذا تماماً. وشكراً لك لصراحتك الآن. ويجب أن تزورنا زيارة ثانية في قصر كوربي وسنعمل جاهدين أن لا تنام في غرفة الولد مرة ثانية».

وحافظ هوارد على وعده، ولم يذكر تجربة الكاهن سوى في مذكراته الخاصة. ولكن المحترم، وبعد وقت قصير من كشفه الأمر لهوارد أخذ يعيد سرد تجربته في كل المناسبات. وكما قلنا، حتى وقت متأخر من عام 1824، كان لا يزال يقضي دعوات عشاءه وهو يسرد القصة.

أما بالنسبة للولد، فقد مر النصف قرن التالي وهو يسجل ظهوره على مختلف الناس، بعضهم مات في ظروف عنيفة، ولكن العديد منهم، أمثال كاهن «غريستوك» وجدوا ظهوره تجربة لطيفة. وحتى منتصف القرن الماضي بدا أن شبح ذلك الولد قد هجر قصر كوربي إلى الأبد.

أصل ذلك الشبح لم يكن مشهوراً ولا مسجلاً في سجل التقاليد. ونفس الشيء ينطبق على الولد المضيء الذي ظهر للورد «كاسلريغ» لسنوات طويلة قبل أن يذبح في نورث غراس عام 1822.

في ذلك الوقت كان اللورد «كاسلريغ» لا يزال الكابتن روبرت ستيوارت، الإبن الثاني للمركيز لندلاري، ومركزه في إيرلنده. وكان مولعاً بالرياضة، وفي يوم ما وقد خرج للصيد، إبتعد إلى أرض غريبة حتى أنه ضل الطريق. وحتى الوقت الذي اكتشف فيه أنه ضل الطريق، كان الطقس قد ساء، مما دفعه إلى السعي نحو ملجأ في منزل ريفي.

وأرسل بطاقته إلى المنزل مع طلب لجوء لتلك الليلة، وبحسن الضيافة الإيرلندية المعروفة، استقبله سيد المنزل بحرارة، على الرغم من أنه أشار إلى أن لديه العديد من الضيوف، ولن يستطيع جعل إقامة الكابتن ستيوارت مريحة كما يشتهي، على كل الأحوال رحب بالكابتن على أساس ما يستطيع تقديمه من أسباب الراحة حسب الظروف.

وقال له «كاستلريغ» مؤكداً: «أنت لطيف جداً يا سيدي. وسأكون أكثر من ممتن لإعطائك لي المأوى والدفء ومكان أستطيع التمدد فيه».

ورد عليه مضيفه: «أنا واثق من وجود مكان للنوم» ورن الجرس ليحضر الساقي، الذي أعطاه التعليمات ليقوم بجهده لخدمة الكابتن ستيوارت.

وكما قال المضيف، كان المنزل مزدحماً، ولكن الضيوف، وبعضهم لاجئون عرضيون من العاصفة مثله تماماً، قاموا بحفلة جيدة. عند العشاء، وبسؤال مضيفه له ما إذا كان سيعود إلى مقاطعته في اليوم التالي، علم أن هناك ثلاثة أيام بقيت له من إجازته، وهكذا تقبل ستيوارت بابتهاج الدعوة للبقاء قدر ما يستطيع، بعد أن وعده بصيد جيد.

وبعد تمضية أمسية ممتازة ذهب المحتفلون في النهاية إلى أسرتهم، ورافق الساقي ستيوارت إلى غرفته. كانت غرفة، واسعة، خالية من الأثاث ما عدا كرسيين وخزانة. ومع ذلك كانت هناك نار كبيرة تشتعل في المدفأة الواسعة وأمامها فراش ومجموعة متناقضة من العباءات والأغطية الأخرى محضرة له. ومع أن الفراش كان خشناً، فإنه كان للكابتن ستيوارت المتعب مريحاً أكثر من أي سرير مريح.

وبدا له أن النار تشتعل في المدخنة بطريقة تدعوا للقلق، لذا أزاح بعضاً من الحطب، ثم تمدد على الفراش وغط في نوم سريع. ومضى على نومه ساعتان تقريباً، واستيقظ فجأة وقد أذهله نور ساطع في الغرفة حتى أنه ظن في البداية، كما حدث لكاهن «غريستوك» في قصر «كوربي»

أن هناك حريقاً في الغرفة. ولكن عندما استدار لينظر إلى المدفأة وجد أن النار قد خبت تماماً.

وبتوهج النور أكثر فأكثر تدريجياً، استوى جالساً، على أمل اكتشاف مكان النور، وهو يحدق، وجد النور يكون نفسه تدريجياً إلى شكل آدمي، وكشف الشكل أخيراً عن نفسه ليكون ولداً جميلاً عارياً، تحيط به غمامة من نور لها سطوع مذهل. وحدق الولد له باهتمام، ورد الكابتن على النظرة بمثلها، وببطء بدأ الظهور بالتلاشي إلى أن اختفى تماماً في النهاية.

أول ردة فعل لستيوارت كان ظنه أن مضيفه والضيوف والآخرين يسلون أنفسهم على حساب أعصابه، محاولين تخويفه... وبالطبع، أحس بالغضب، وعندما نزل لتناول الفطار في الصباح التالي، أظهر من تصرفاته أنه لا يزال مستاءاً.

واحتار المضيف من تغيير طبع ضيفه، الذي كان في الأمسية السابقة أكثر أعضاء الحفلة مرحاً. ولكن عندما أخبره ستيوارت أنه سوف يغادر المنزل بعد الطعام مباشرة، أدرك أن هناك شيء ما قد حدث.

فقال متعجباً: «ولكن، يا كابتن ستيوارت! لقد وعدتني بالانضمام إلينا ليومين أو ثلاث!».

فرد ستيوارت: لقد غيرت رأيي يا سيدي» وكان رده بارداً حتى أن مضيفه أخذه إلى جانب وضغط عليه ليخبره ما أغضبه.

وكل ما قاله ستيوارت أنه كان ضحية مزاح مزعج، وفي نظره، هذا تصرف لا يمكن تبريره تجاه ضيف ليس مجرد ضيف بل غريب أيضاً.

فصاح مضيفه: «ولكن بحق الله يا سيدي... أنت محق تماماً!» بعض من هؤلاء الشياطين الشبان لا تفكير لديهم، وأنا أعتذر وإذا تمكنت من

إجبارهم على الاعتذار، فهل ستنسى الحادثة وتتابع منحى السعادة برفقتك؟ أتوسل إليك أن تكون كريم النفس، فحفلة الصيد، أؤكد لك، لم تتأخر عن موعدها يوماً».

حب ستيوارت للصيد أقنعه بأن يكون متسامحاً. ولكن عندما عادا إلى غرفة الطعام، وطلب المضيف بإصرار معرفة المسؤول عن المزاح السمج الذي تعرض له ضيفه المميز خلال الليل، وأن عليه الاعتذار فوراً، سارع كل الشبان بإعلان براءتهم.

فجأة، بدرت للمضيف فكرة، فصفق يده على جبينه واستدعى الخادم وهو يتمتم باللعنات، وسأل الخادم: «هاملتون؟ أين نام الكابتن ستيوارت ليلة أمس؟».

فقال الخادم: «حسن يا سيدي أنت تعلم أن المنزل مليء بالضيوف. وبعض السادة المحترمين ناموا على الأرض، كل ثلاثة أو أربعة في غرفة، لذا أعطيته غرفة الولد. ولكنني أشعلت ناراً عظيمة، لأمنعه من الخروج».

فقال له سيده بغضب: «لكنك تعلم أنني حرّمتك من إيواء أي كان في غرفة الولد. لماذا تظنني أمرت بإخراج كل الأثاث منها؟ لو فعلت هذا ثانية يا هاملتون، فسوف يكون الفراق بيننا. كن لطيفاً بما يكفي يا سيدي للقدوم معي إلى المكتبة».

ورافق المضيف ستيوارت حيث قال له: «سيدي يجب أن أقدم لك عشرة آلاف اعتذار. ما كان يجب أن تنام في تلك الغرفة!».

وسأله ستيوارت: «ما كل هذا عن الولد؟».

فأجاب: «إعذرني يا كابتن، الأفضل أن لا أخوض في التفصيلات. فلنقل إنك رأيت شبحاً عائلياً».

وانفجر ستيوارت بالضحك: «هيا هيا يا سيدي، فهذا القول لن ينجح حقاً. لقد كان أجمل شبح رآه أي إنسان كما أنا متأكد».

فقال المضيف: «عندما بدأ بالظهور علينا، لا بد أن العائلة يومها كانت في أيام أفضل من هذه، فلقد قيل لي أن بذلته الذهبية».

فقاطعه ستيوارت: «ولكنه ليلة أمس كان عارياً تماماً».

فتعجب المضيف: «عار؟ لم أسمع بهذا من قبل!»

وسأله ستيوارت: «من هو؟».

فشرح المضيف: «لقد كان إبن أحد أسلافنا يا سيدي. وللتعاسة فقدت أمه العقل، وفي إحدى نوباتها العنيفة خنقت الطفل، الذي كان أصغر بنيها والمفضّل لديها، بينما كان نائماً في الغرفة التي نمت فيها ليلة أمس. وكان عمره تسعة أو عشر سنوات فقط».

وسأله ستيوارت باهتمام: «وهو الآن يرتاد تلك الغرفة. هل هو مصدر إزعاج لك؟».

فرد المضيف: «إنه يزعجنا فقط عندما يراه أحد»

وسأل ستيوارت: «ولماذا عندها فقط؟».

مرة أخرى بدا التردد على مضيفه ولم يرد، ولم يستجب الرجل إلا بعد أن صرح ستيوارت بأنه سيغضب ويشعر بالإهانة إذا لم يرد عليه، فقال: «أرجو أن تتذكر أنك أصريت. التقاليد تقول أن الولد يبشر بأخبار طيبة وأخبار سيئة. فمن يظهر عليه يحظى بفترات ازدهار كبيرة. ويعتلي قمة السلطة، ولكن. .. في قمة صعوده يلقى موتاً عنيفاً».

ويبدو أن هذا الرد خطف أنفاس ستيوارت، فلازم الصمت لبضع دقائق، ثم ابتسم وقال: «حسن يا سيدي، كلنا سنموت عاجلاً أم آجلاً، ولا يبدو لي من المهم كيف يأتي الموت. وإذا كانت فترة ازدهاري ستجعل حياتي سعيدة، فستكون النهاية تستحق. ويجب أن تعرف يا سيدي أنني الإبن الثاني لوالدي، ومستقبلي ليس أفضل من مستقبل أي

ولد ثانٍ. . . على أي حال، يبدو في الوقت الحاضر أنني سأمضي بقية مستقبلي العملي كجندي. وأنا لست من المبدعين عسكرياً، والوصول إلى رتبة كولونيل هي أقصى أحلامي».

وخلال بضعة أعوام من ظهور الولد على الكابتن ستيوارت، تغير حظه ومستقبله فجأة. فغرق أخاه الأكبر، وارث لقب الماركيز «لندنديري» في حادثة باخرة وورثه ستيوارت، ونال لقب «الفايكونت كاسلريغ».

والتغير في المرتبة تبعه تغيير في المسؤوليات أيضاً، ووجد اللورد كاسلريغ الجديد نفسه يحتل مركزاً بارزاً في الشؤون الإيرلندية. والدور الذي لعبه في المناورات السياسية، والتي نتج عنها عام 1800 إعلان الاتحاد بين إنكلترا وإيرلندا كان في الواقع بداية مستقبل باهر له.

واكتشف الآن أنه يمتلك إمكانيات كان يجهلها فيما مضى. . . وهذا ما قاده إلى الأمام إلى أن اكتسب مركزاً قيادياً في الإدارة الإنكليزية. وفي عام 1805 عيّن وزيراً للحربية ومرة ثانية عام 1807، بينما من عام 1812 وفيما بعد احتل منصب وزير الخارجية. وأشرف على سياسة البلد الخارجية خلال واحدة من أهم الفترات في التاريخ.

ولسوء الحظ، إنقلب إلى رجل بارد، ذو نزعه عدائية، سببت له ليس عدم الشعبية فقط بل الكراهية القلبية حتى من أفراد حزبه. ومع ذلك فلم يكن بالرجل القوي، كما تتطلب أيامه، ولكنه كان ناجحاً في مشاريعه كوزير لخدمة بلاده.

عام 1812، بعد موت والده أصبح المركيز لندنديري، مع أنه كان معروفاً أكثر كاللورد «كاسلريغ». . . وهناك روايتان لسبب موته. إحداها تقول أنه قريباً من نهاية حياته عانى من داء المفاصل كثيراً، وبدأت أعراض التعب من حياة سياسية طويلة تظهر عليه بشكل ملحوظ. وبدأت أخلاقه تتغير بشكل غريب. وبناء على اقتراح من اللورد يولنغتون سعى إلى استشارة

طبية، والتي لم تسفر عن تغيير في حالته.

عندها فقط بدا في خطر تام بفقدان عقله، وأصبحت حالته خطيرة لدرجة إرساله إلى منزله الريفي في نورث كراي. وكأمر احتياطي سحبت منه كل أمواس الحلاقة، وثبت أن هذا لم ينفع، ففي الثاني عشر من آب عام 1822، قطع رقبته بسكين أقلام.

والرواية الثانية أقل لطفاً. فقد أشاع بعض المؤرخين الإجتماعيين أنه كان شاذاً جنسياً، وأنه انتحر نتيجة ابتزاز تعرض له. وإذا كان هذا صحيح، فإن واقع ظهور الولد المضيء عليه، وحيداً من بين كل الضحايا، عارياً، يضيف إشارة إثبات وجدها علماء النفس مثيرة دون شك.

* * *

ثالث ظهور للولد المضيء، والأشهر، سُجّل في سياق اقتران مع توماس، البارون ليتلتون الثاني، المعروف في حياته باللورد ليتلتون الفاسد، نظراً لانغماسه في ملذات لم يحاول أبداً إنكارها. علاقاته الغرامية ومقامراته كانت فضائح تلك الأيام. أيام النصف الأخير من القرن الثامن عشر. . . التي كانت مليئة بما يكفي من فضائح.

بعد فترة متلونة في أوروبا، حيث نفته عائلته بطريقة أو بأخرى في محاولة لحماية إسم «ليتليتون»، عاد إلى إنكلترا وتزوج أرملة ثرية تدعى آيفيا بيتش، والتي كانت تمتلك ثروة من عشرين ألف جنيه. ورفض السماح لها برؤية محاميها حتى لا يتم «ربط» الأموال لمصلحتها فقط. وحسب قوانين تلك الأيام أصبحت العشرين ألف جنيه ملكاً له قانونياً منذ لحظة وضع فيها الخاتم في إصبع السيدة بيتش. وفي خلال ثلاثة أشهر أنفقها كلها مما أغضب وأحزن الزوجة حتى أنها ماتت بعد وقت قصير.

وأسدلت الستارة الأخيرة على حياة هذا الرجل في شهر تشرين الثاني عام 1779. كان يعيش معه في منزله في لندن، منزل الجحيم، سيدة

تدعى أمغليت وبناتها الصغيرات الثلاث، اليزابيت، في التاسعة عشرة، وكريستينا في السابعة عشرة، ومارغريت في الخامسة عشرة.

ومن المرجح أكثر أن لا تكون السيدة آمغليت مسرورة جداً من تقارب بناتها الثلاث مع اللورد الفاسد. ومع ذلك فقد أعارت أذناً صماء بحيث أنها وهي ترقد في غرفتها أحضر ليتلتون عربته وحمل بها الفتيات الثلاث بسرعة إلى منزله الريفي في مكان ليس ببعيد عن «إبسوم»

قبل منتصف الليل بقليل صعد ليتلتون إلى غرفته لينام. وما حدث بعد ذلك أعاد روايته صديق له كان يقيم معه في المنزل: «لم يمض على نومه سوى وقت قصير حيث استيقظ، حسب روايته لي، على صوت يشبه تغريد الطير، خارج ستائر السرير. وسحب الستائر إلى الخلف وشاهد طيفاً يرتدي الأبيض... فصاح مصدوماً: «ماذا تريد؟» ورد عليه الشبح: «إستعد للموت. أنا هنا لأحذرك بأن وقتك قصير» فسأله اللورد: «كم هو؟ أسابيع، أشهر وربما سنة؟» فرد الشبح: «ستموت في غضون ثلاثة أيام». وهكذا أحس اللورد بالحذر، واستدعى الخادم من الغرفة الملاصقة له، والذي وجده مضطرباً لا يستطيع التنفس ومبتلاً بالعرق. وكان لهذا الظرف تأثير على روحه في اليوم التالي... وفي اليوم الثالث، الذي كان يوم سبت، كان اللورد على طاولة الطعام صباحاً بين ضيوفه، ولوحظ شدة استغراقه في التفكير، ولكنه حاول صرف النظر عن حالته باتهام الآخرين بالتصرف غير الطبيعي وسألهم: «لماذا تبدون جميعاً بحالة حزن؟ هل تفكرون بالشبح؟ أنا في أحسن حال كنتها في حياتي». فيما بعد قال معلقاً:

«لو إنني عشت بعد هذه الليلة، أكون قد هزمت الشبح، فهذا هو اليوم الثالث». بعد الظهر باكراً عانى اللورد نوبة اختناق كالتي أزعجته في الشهر الفائت، زلكنه بعد قليل استعاد نشاطه، وتناول العشاء عند الساعة الخامسة ثم آوى إلى الفراش عند الحادية عشرة. وعندما كان خادمه على

وشك إعطاءه جرعة من دواء عشبي مع ماء النعناع، قام اللورد، بعد أن لاحظ أنه يحرك الدواء بعود أسنان، بدعوته بالكلب وصاح به أن يذهب لإحضار ملعقة.

«عند عودة الرجل وجد سيده وسط نوبة اختناق، وقد ارتفعت الوسائد عالياً وذقنه مستند إلى رقبته بقوة».

«وركض الخادم مرعوباً، بدل أن يريح سيده من وضعيته السيئة، وأخذ يصرخ طلباً للنجدة ولكن لدى عودته وجد سيده ميتاً».

وهكذا لم يهزم الشبح كما عبر عن ذلك آملاً، وكان عمره فقط خمسة وثلاثون عاماً.

وهناك رواية غريبة أخرى تقال عنه مرتبطة بموته. إذ يبدو أن اللورد ليتلتون قد طُلب منه زيارة صديق حميم له يدعى مايلز بيتر أندروز، الذي كان يعيش في دارتفورد، يوم وفاته بالضبط. كانت روحه المعنوية منخفضة جداً حتى أنه لم يشعر بأنه قادر على القيام بالزيارة، كذلك فشل في إرسال توضيح لغيابه.

وخلال تلك الأمسية مرض أندروز وحُمل إلى الفراش باكراً. ولم يكن قد غط في النوم عندما فتحت ستائر سريره فجأة، وشاهد اللورد ليتلتون يقف هناك، وهو يرتدي ثوب النوم المميز الذي يستبقيه في منزل صديقه.

واعتقد أندروز، باندهاش، أن ليتلتون وصل لزيارته متأخراً، ودخل غرفته على الأرجح كنوع من المزاح. لذلك تكلم مع الطيف قائلاً: «لا بد أنك تنوي القيام ببعض ألاعيبك. إذهب إلى فراشك أو سأرميك بشيء ما». ولكن الطيف أخذ يحدق به بجدية ثم قال بجدية: «لقد انتهى أمري يا أندروز» ونزل أندروز عن الفراش وهو لا يزال يعتقد أن الواقف هناك صديقه، والتقط خُف النوم عن الأرض ورماه به، عندما تحرك الطيف

بصمت نحو غرفة الملابس. ولطالما كان أندروز ضحية لمزحات ليتلتون، فغادر سريره ولحق بالطيف إلى غرفة الملابس. ولكنه عندما حاول فتح باب الغرفة ومن ثم باب غرفته وجدهما مقفلين.

واحتار أندروز، ولكنه لا يزال لا يرتاب بشيء سوى أن الأمر لعبة، فاستدعى الخدم، وسألهم عن مكان وجود ليتلتون، وكان ردهم بأنه ليس في المنزل حسب علمهم. فقال أندروز: «حسن... إذا أتى، قولوا له أن كل غرف النوم مشغولة وأن عليه أن يفتش عن غرفة في فندق «دارتفورد».

ولم يسمع أندروز إلا في وقت متأخر من اليوم التالي بموت صديقه... ووقع مغمياً عليه لوقت طويل، ولم يستعد رباطة جأشه لثلاثة سنوات تلت.

المحتويات

BEST SELLERS
أروع القصص البوليسية
POLICE ACTION STORIES



مقتبسة ومترجمة عن أروع الروايات من أساطير هيتشكوك في الرعب والتشويق وألغاز هولمز البوليسية. مدبلجة باللغة العربية، بلغة سليمة سهلة ومتقنة، تمت مراجعتها وتحريرها من قبل متخصصون في اللغة العربية، حيث أنهم شكّلوا فريقاً متجانساً، أخذ كل منهم على عاتقه عملية الترجمة والتنقيح والتحرير والتصحيح، في مراحل متعددة ليأتي العمل ثماره على أحسن صورة.

صـــدر منـهـا:

- وادي الرعب
- كنز آغرا المفقود
- الجريمة الغامضة
- لعنة باسكرڤيل
- الأشباح العاشقة
- الجرائم الخفية
- أشباح الماضي الغامضة
- شبح القصر العنيف

وهي متوفرة في جميع المكتبات

ISBN 9953-30-070-4
9 789953 300702

دار الراتب الجامعية Dar El Rateb
P. O. Box: 19-5229 • Telefax: 00961 1 853 993 – 853 89
E-mail: el-rateb@cyberia.net.lb